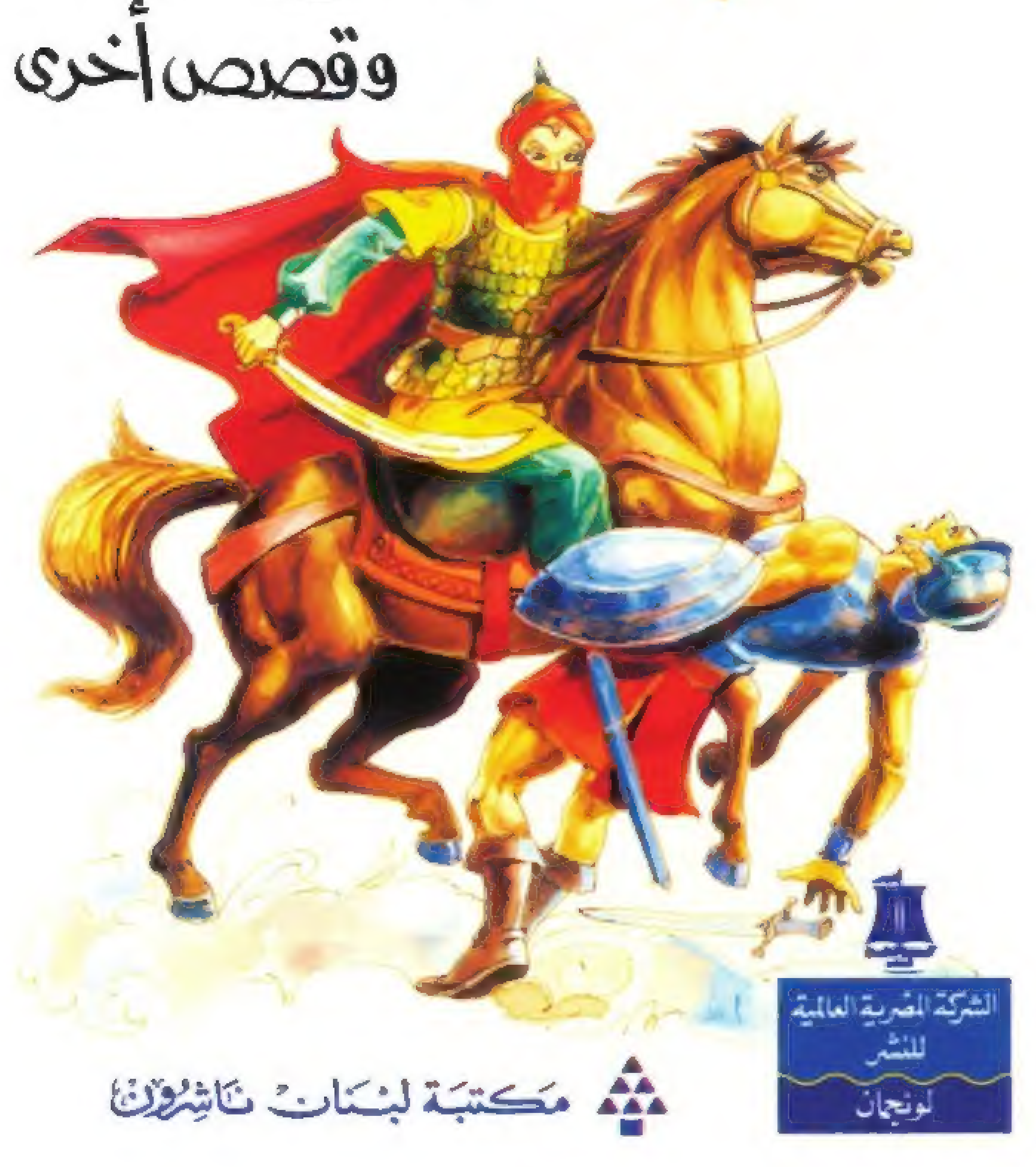
الينابيع

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

ذو الإصبع وبناته

وقصص أخرى



الشركة المصرية العالمية للنشر
لونجمان

مكتبة لبنان ناشرون

ذو الإصبع وبناته

وقصص أخرى

إشراف : وجدي رزق غالي

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ، ٣٩٢٩٦١٦ (٠٢)

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت: ٤٨٠٣٥٦٠ ، ٣٩٢٠٥٣٩ - ٤٩٤ (٠٣)

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الايداع ٨٦٠١ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ١٢٢٠ - ٤

رسوم : محمد نبيل عبد العزيز

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة



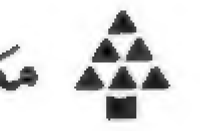
ذو الإصبع وبناته

وقصص أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد







مكتبة لبنان ناشرون

عائِشَةُ المَخزوميَّةُ
أو أُسامَةُ الفِهرِيّ

عائِشَةُ المَخْزومِيَّةُ فَتاةٌ في العِشْرينَ مِنْ عُمْرِها، صَبيحَةُ الوَجْهِ، رائِعَةُ القَسَماتِ، مُشْرِقَةُ البَسَماتِ، وَهَبَها اللهُ عَيْنَيْنِ يَتَأَلَّقُ مِنْهُما السِّحْرُ. وهِيَ مَعَ جَمالِها البارِعِ وحُسْنِها الباهِرِ، ذاتُ نَفْسٍ عَرَبِيَّةٍ أَصيلَةٍ، وعَزيمَةٍ قَوِيَّةٍ ماضِيَةٍ كالسَّيْفِ القاطِعِ، وهِمَّةٍ عالِيَةٍ لا تَخْشى خَطيراتِ الأُمورِ، وتَتَخَطّى ما يَعْتَرِضُ طَريقَها مِنْ صِعابٍ.

خَطَبَها المُغيثُ بْنُ الحارِثِ مِنْ عَمِّها أَبي القاسِمِ المَخْزومِيِّ فَرَضِيَتْ بِهِ زَوْجًا، لِما عَرَفَتْهُ عَنْهُ مِنْ شَجاعَةٍ وإِقْدامٍ، وفُروسِيَّةٍ وبَسالَةٍ، وخُلُقٍ قَويمٍ، يَنُمُّ عَنْ مَعْدِنٍ أَصيلٍ وأَدَبٍ جَمٍّ، ورَجاحَةِ عَقْلٍ، وسَدادِ رَأْيٍ. وكانَ كُلَّما ازْدادَتْ بِهِ إِعْجابًا، ولَهُ حُبًّا، زادَ إِكْبارُها لَهُ، وافْتِتانُها بِأَدَبِهِ وخُلُقِهِ.

دَخَلَ عَلَيْها ذاتَ يَوْمٍ في صُحْبَةِ عَمِّها فَرَحَّبَتْ بِهِما، وسُرَّتْ

لِمَقْدَمِهِما، وقالَتْ: «أَعَلِمْتُما بِما تَمَّ لِطارِقِ بْنِ زِيادٍ؟ لَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلى يَدَيْهِ الأَنْدَلُسَ.»

قالَ المُغيثُ: «نَعَمْ، وأَظُنُّ طارِقًا الآنَ في طَرِيقِهِ إلى طُلَيْطِلَةَ.»

قالَتْ: «يا لَهُ مِنْ نَصْرٍ عَظيمٍ، وفَتْحٍ مُبينٍ!»

قالَ المُغيثُ: «لَنْ يَكونَ كَذَلِكَ، يا عائِشَةُ، إلّا إذا سافَرَ خَطيبُكِ فَأَتَمَّ فَتْحَ الجَزيرَةِ كُلِّها، وجاءَ إِلَيْكِ بِتاجِ مَلِكِ القُوطِ، يُزَيِّنُ بِهِ رَأْسَكِ.»

قالَتْ: «لا تَعْبَثْ، يا بْنَ الحارِثِ، فَلَيْسَ هَذا وَقْتَ المُزاحِ، أَتُريدُ أَنْ تَذْهَبَ إلى بِلادِ الأَنْدَلُسِ؟»

قالَ المُغيثُ: «نَعَمْ، يا عائِشَةُ، وبَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ عَلى رَأْسِ جَيْشي لِمُسانَدَةِ طارِقٍ. وَذَلِكَ أَمْرُ أَميرِ المُؤْمِنينَ الوَليدِ.»

قالَتْ: «إِذًا، خُذْني مَعَكَ.»

وَجَمَ المُغيثُ (سَكَتَ عَجْزًا عَنِ الكَلامِ)، وأَطْرَقَ بُرْهَةً، ثُمَّ قالَ لَها: «كَيْفَ أَصْحَبُ فَتاةً لَيْسَتْ زَوْجَةً لي؟»

قالَتْ: «الأَمْرُ هَيِّنٌ، نَتَزَوَّجُ غَدًا، ثُمَّ نَرْحَلُ بَعْدَ غَدٍ كَما تَشاءُ.»

قالَ، وَهُوَ يُغالِبُ سُخْرِيَتَهُ وتَهَكُّمَهُ: «وماذا تَقولينَ في ذَلِكَ الشّاعِرِ الَّذي يَقولُ:

كُتِبَ القَتْلُ والقِتالُ عَلَيْنا   وعَلى الغانِياتِ جَرُّ الذُّيولِ.»

قالَتْ: «أَقولُ: ذَلِكَ رَجُلٌ أَحْمَقُ مَغْرورٌ، لَمْ يَعْرِفِ الرِّجالَ، كَما أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفِ النِّساءَ، فَلَيْسَ كُلُّ رَجُلٍ شُجاعًا فاتِكًا، ولَيْسَتْ كُلُّ فَتاةٍ خائِرَةَ العَزْمِ، واهِنَةَ العَزيمَةِ.

«إِنَّ هَذا القَوْلَ يُفْصِحُ عَنْ أَثَرَةٍ وأَنانِيَةٍ مُفْرِطَةٍ! كَأَنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ إِلّا الرِّجالَ لِلْمَجْدِ والبُطولَةِ، والتَّضْحِيَةِ والفِداءِ! إِنَّ اللهَ قَدْ مَيَّزَكُمْ عَلَيْنا بِبَسْطَةِ الجِسْمِ، ومَتانَةِ البُنْيانِ، لَكِنَّ قُوَّةَ الرّوحِ، وصِدْقَ العَزيمَةِ، أَقْوى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

«والعَزيمَةُ الصّادِقَةُ إِذا تَمَكَّنَتْ مِنَ المَرْأَةِ، وتَغَذَّتْ بِعَواطِفِها، عَصَفَتْ بِالشَّدائِدِ، وخاضَتِ الأَهْوالَ، ولَمْ تُبالِ بِما يُصادِفُها مِنْ صِعابٍ، وما يَعْتَرِضُ طَريقَها مِنْ عَقَباتٍ.

«إِنَّ كِبْرياءَ الرَّجُلِ وغُرورَهُ زَيَّنا لَهُ أَنَّ المَرْأَةَ لَمْ تُخْلَقْ إِلّا لِيَلْهُوَ بِها ويَعْبَثَ، ولِتَلْهُوَ هِيَ بِالمِغْزَلِ في بَيْتِها، ومِنْ ثَمَّ رُحْتُمْ تَتَنَدَّرونَ بِضَعْفِ المَرْأَةِ، وخَوَرِ عَزيمَتِها، ولينِ طِباعِها.

«لِماذا لا نَخوضُ مَعَكُمُ المَعارِكَ، ونُقاسِمُكُمُ الشَّرَفَ والمَجْدَ؟»

كانَ المُغيثُ يُصْغي بِعَقْلِهِ وقَلْبِهِ لِهَذِهِ الكَلِماتِ المُتَدَفِّقَةِ مِنْ فَمِ

فَتاتِهِ، تَشْتَعِلُ حَماسًا، وتَفيضُ قُوَّةً وصَلابَةً، وما إنْ فَرَغَتْ مِنْ قَوْلِها حَتّى عَقَّبَ عَلَيْهِ قائِلًا:

«لَمْ تَزيديني، يا عائِشَةُ، يَقينًا بِشَجاعَتِكِ وقُوَّةِ عَزيمَتِكِ، وسَيَظَلُّ الإسْلامُ بِخَيْرٍ ما زاحَمَتِ النِّساءُ الرِّجالَ في مَيادينِ الشَّرَفِ والبُطولَةِ، ولَكِنَّ هَذِهِ المَيادينَ لَيْسَتْ مَيادينَ القِتالِ فَحَسْبُ، فَكُلُّ مَيادينِ العَمَلِ والإنْتاجِ مَيادينُ شَرَفٍ وبُطولَةٍ.»

سَعِدَتْ عائِشَةُ بِقَوْلِهِ، فَأَسْرَعَتْ تَقولُ: «إذًا، خُذْني مَعَكَ.»

قالَ المُغيثُ: «دَعي هَذِهِ الغَزْوَةَ، فإنَّ أميرَ المُؤْمِنينَ يَخْشى فيها عَلى الرِّجالِ، فَكَيْفَ بِالنِّساءِ؟»

قالَتْ: «أَوَ يَرْضى أميرُ المُؤْمِنينَ أَنْ يَكونَ حائِلًا بَيْنَ فَتاةٍ وبَيْنَ الجَنَّةِ، وقَدْ رَأَتْ أَبْوابَها مُفَتَّحَةً، فَهَفَتْ لِدُخولِها؟»

قالَ المُغيثُ: «يا فَتاتي، إنَّ أُمورَ المُسْلِمينَ أَمانَةٌ في يَدِهِ، وهُوَ بِهِمْ رَحيمٌ، وعَلَيْهِمْ حَريصٌ.»

وَانْفَلَتَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْها، وأَسْرَعَ خارِجًا، ونَهَضَتْ وَراءَهُ لِتُدْرِكَهُ، فَلَمْ تَجِدْ لَهُ أَثَرًا، كَأَنَّما انْشَقَّتِ الأَرْضُ وَابْتَلَعَتْهُ، أَوْ تَخَطَّفَتْهُ السَّماءُ.

***

انْطَلَقَ المُغيثُ بِجَيْشِهِ إلى بِلادِ الأَنْدَلُسِ، والْتَقى بِطارِقِ بْنِ زِيادٍ في مَدينَةِ إشْبِيلِيَّةَ، فَرَأَى جُنودًا زادَهُمُ النَّصْرُ حَماسَةً وقُوَّةً، ورَأى قائِدًا لَمْ تُلْهِهِ الغَنائِمُ والفُتوحُ، وإنَّما هُوَ أَسَدٌ هَصورٌ، أَوْ نَسْرٌ جارِحٌ يَصْفِقُ بِأَجْنِحَتِهِ اسْتِعْدادًا لِلانْقِضاضِ عَلى فَريسَتِهِ، فَانْدَمَجَ هُوَ وجَيْشُهُ فيهِمْ، وانْقَضَّ مَعَهُمْ عَلى إسْتِجَةَ، وكانَتْ في مَنْعَةٍ وحَصانَةٍ، فَفَتَحَها اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وأَجْرى عَلى أَيْديهِمُ النَّصْرَ.

أمّا عائِشَةُ فَقَدْ لَبِثَتْ في دِمَشْقَ حَزينَةً والِهَةً، تُعاني لَوْعَةَ الفِراقِ، وتَشْكو ما أَسْمَتْهُ ضَعْفَ الأُنوثَةِ، واسْتِهانَةَ الرِّجالِ بِها؛ لأَنَّها لا تَشْهَدُ حَرْبًا، ولا تَضْرِبُ بِسَيْفٍ، ولا تَطْعَنُ بِرُمْحٍ، وهَذِهِ وِراثَةٌ تَرَسَّبَتْ في أَعْماقِ الرِّجالِ مِنَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى.

فَلَمّا نَفِدَ صَبْرُها، واشْتَدَّ أَلَمُها، راحَتْ تُلِحُّ عَلى أُمِّها في أَنْ تَأْذَنَ لَها بِالرَّحيلِ إلى الأَنْدَلُسِ.

بُهِتَتِ الأُمُّ، وظَنَّتْ أَنَّ مَسًّا مِنَ الجُنونِ قَدْ أَصابَ ابْنَتَها، نَتيجَةَ فِراقِ خَطيبِها، ولَكِنَّ عائِشَةَ لَمْ تَنْهَزِمْ إرادَتُها أَمامَ اسْتِنْكارِ أُمِّها لِهَذِهِ الرَّغْبَةِ، بَلْ زادَتْ إصْرارًا عَلَيْها، وإلْحاحًا في طَلَبِها، حَتّى ضاقَتْ أُمُّها بِهَذا الإلحاحِ، فَلَمْ تَجِدْ بُدًّا مِنَ الرُّضوخِ لِهَذِهِ الرَّغْبَةِ الَّتي عَدَّتْها جامِحَةً مُسْرِفَةً في الجُموحِ.

هَلَّلَتْ عائِشَةُ لِمُوافَقَةِ أُمِّها، وكادَتْ تَطيرُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ، فَها هِيَ ذي تُسافِرُ إلى حَيْثُ مَيْدانُ الوَغى والقِتالِ، مُجاهِدَةً في سَبيلِ رَبِّها، ومُلْتَقِيَةً بِخَطيبِها، ومُثْبِتَةً أَنَّ المَرْأَةَ لا تَقِلُّ عَزيمَتُها مَضاءً وقُوَّةً عَنْ عَزيمَةِ أَشَدِّ الرِّجالِ.

ونادَتْ خادِمًا لَها اسْمُهُ رَباحٌ، فَأَسْرَعَ مُلَبِّيًا، فَأَمَرَتْهُ أَنْ يُعِدَّ أَرْبَعَةَ جِيادٍ لِسَفَرٍ طَويلٍ، وأَنْ يَحْمِلَ عَلى اثْنَيْنِ مِنْها ما يَحْتاجُهُ المُسافِرانِ مِنْ زادٍ، فَسَأَلَها: «إلى أَيْنَ نَذْهَبُ، يا سَيِّدَتي؟»

أَجابَتْ عائِشَةُ: «إلى حَيْثُ تَغْرُبُ الشَّمْسُ.»

قالَ الخادِمُ: «أَخْشى، يا سَيِّدَتي، أنْ يَلْتَقِمَها البَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَلْحَقَها.»

قالَتْ في وَقارٍ واعْتِزازٍ:

«لا تَخْشَ شَيْئًا، يا رَباحُ. اِذْهَبْ وأَعِدَّ العُدَّةَ قَبْلَ أنْ يُرْخِيَ اللَّيْلُ أَسْتارَهُ.»

وأَسْرَعَ الخادِمُ يُلَبِّي أَمْرَ عائِشَةَ، فَقَدْ كانَ يَجِدُ في خِدْمَتِها لَذَّةً وسَعادَةً، ولَكِنَّهُ حينَ عادَ لِيُخْبِرَها بِأَنَّهُ أَعَدَّ ما طَلَبَتْ وَجَدَ مُفاجَأَةً لَمْ تَكُنْ تَخْطِرُ لَهُ عَلى بالٍ.

لَقَدْ وَجَدَ سَيِّدَتَهُ عائِشَةَ قَدِ ارْتَدَتْ ثِيابَ أَخيها عَبْدِ اللهِ، ولَبِسَتْ

دِرْعَهُ، وأَمْسَكَتْ سَيْفَهُ وتُرْسَهُ. وعَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسانَهُ، فَأَخَذَ يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ كَأَنَّما يُرِيدُ أَنْ يَسْتَيْقِظَ مِنْ حُلْمٍ، فابْتَدَرَتْهُ قائِلَةً: «هَلْ فَرَغْتَ، يا رَباحُ؟»

أَجابَها: «نَعَمْ، يا سَيِّدَتي.»

ودَخَلَتْ عائِشَةُ إلى أُمِّها فَوَدَّعَتْها، ورَجَتْها أَنْ تَدْعُوَ لَها بِالتَّوْفيقِ والفَلاحِ، واسْتَجابَتِ الأُمُّ لِلرَّجاءِ، وقَطَراتُ الدُّموعِ تَنْسابُ عَلى خَدَّيْها.

***

وانْطَلَقَتْ عائِشَةُ مِنْ دِمَشْقَ في أصيلِ (وَقْت اصْفِرارِ الشَّمْسِ قَبْلَ الغُروبِ) يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ شَهْرِ ذي الحِجَّةِ، في العامِ الثّاني والتِّسْعينَ مِنَ الهِجْرَةِ، مُوَلِّيَةً وَجْهَها شَطْرَ بِلادِ الأَنْدَلُسِ، واجْتازَتْ في طَرِيقِها مِصْرَ وبِلادَ المَغْرِبِ العَرَبِيِّ، وتَغَلَّبَتْ عَلى ما صادَفَها مِنْ أَخْطارٍ، وما لَقِيَتْ مِنْ عَوائِقَ، حَتّى وَصَلَتْ مَدينَةَ سَبْتَةَ، وهِيَ مَدينَةٌ بِالمَغْرِبِ، أَوْ بِمَراكِشَ كَما كانوا يُسَمّونَها آنَذاكَ، تَقَعُ في مُواجَهَةِ جَزيرَةِ الأَنْدَلُسِ، ويَفْصِلُ بَيْنَهُما بَحْرُ الزُّقاقِ.

وَقَفَتْ عائِشَةُ عَلى شاطِئِ البَحْرِ تَنْظُرُ يَمينًا وشِمالًا عَلَّها تَجِدُ سَفينَةً تَمْخُرُ بِها هَذا العُبابَ (تَشُقُّ بِها الأَمْواجَ)، وتَنْقُلُها إلى حَيْثُ تُريدُ، ولَكِنَّها لَمْ تَجِدْ أَثَرًا



لِلسُّفُنِ، غَيْرَ سَفينَةٍ واحِدَةٍ، يَبْدو مِمّا فيها مِنَ الخَدَمِ والحَشَمِ أَنَّها لِكَبيرٍ مِنْ كُبَراءِ القَوْمِ.

وبَيْنَما هِيَ حائِرَةٌ تُجيلُ طَرْفَها ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ عَساها تَظْفَرُ بِسَفينَةٍ أُخْرى - دَنَتْ مِنْها فَتاةٌ في مِثْلِ سِنِّها، بارِعَةُ الحُسْنِ والجَمالِ، وقالَتْ لَها: «أَراكَ حائِرًا، أَيُّها الفَتى العَرَبِيُّ، فَهَلْ لَكَ حاجَةٌ أَستَطيعُ قَضاءَها لَكَ؟»

قالَتْ عائِشَةُ: «نَعَمْ، يا سَيِّدَتي. إِنَّني أَبْحَثُ عَنْ سَفينَةٍ تَنْقُلُني إِلى الأَنْدَلُسِ.»

قالَتِ الفَتاةُ: «إِنَّني ذاهِبَةٌ إِلى بِلادِ الأَنْدَلُسِ، وفي سَفينَتي مُتَّسَعٌ لِعَرَبِيٍّ كَريمٍ مِثْلِكَ، ويُسْعِدُني أَنْ تَسْتَجيبَ لِرَغْبَتي.»

قالَتْ عائِشَةُ: «حُبًّا وكَرامَةً، هَذِهِ يَدٌ (نِعْمَةٌ وَإِحْسانٌ) لَنْ أَنْساها لَكِ أَبَدَ الدَّهْرِ، يا سَيِّدَتي.»

وأَمَرَتْ عائِشَةُ خادِمَها رَباحًا أَنْ يَنْقُلَ إِلى السَّفينَةِ مَتاعَهُما، والجَوادَيْنِ اللَّذَيْنِ بَقِيا لَهُما، ثُمَّ هَبَطَتْ مَعَ السَّيِّدَةِ إِلى السَّفينَةِ.

كانَتِ الفَتاةُ صاحِبَةُ السَّفينَةِ هِيَ فُلورِنْدا ابْنَةَ يُولْيان الَّذي كانَ حاكِمًا لِمَدينَةِ سَبْتَةَ مِنْ قِبَلِ القُوطِ، وكانَتْ في طَريقِها إِلى بِلادِ

الأَنْدَلُسِ لِتَلْتَقِيَ أَباها الَّذي تَحالَفَ مَعَ العَرَبِ ضِدَّ «لَذْريق» حاكِمِ الأَنْدَلُسِ.

وعِنْدَما اسْتَقَرَّ مُقامُ السَّفينَةِ بِعائِشَةَ والفَتاةِ، دَقَّقَتِ الفَتاةُ النَّظَرَ في هَذا الشّابِّ العَرَبِيِّ، فَرَأَتْ شَبابًا ناضِرًا، وفُتُوَّةً بارِعَةً، ونُبْلًا أَصيلًا يَتَراءَى عَلى مُحَيّاهُ.

إِنَّها لَنْ تَجِدَ فَتًى مِثْلَهُ ولَوْ جابَتِ الأَرْضَ كُلَّها مِنْ أَقْصاها إِلى أَقْصاها، فَلِماذا لا تَتَزَوَّجُهُ؟ إِنَّها يَجِبُ أَنْ تَتَزَوَّجَهُ، أَوْ عَلى الأَقَلِّ يَجِبُ أَنْ تَسْعى في سَبيلِ ذَلِكَ، ومَنْ جَدَّ وَجَدَ، ومَنْ سارَ عَلى الدَّرْبِ وَصَلَ.

جالَتْ هَذِهِ الخَواطِرُ في ذِهْنِ فُلورِنْدا، فَسَدَّدَتْ إِلى الفَتى سِهامًا مِنْ لَحْظِها، وسَأَلَتْهُ: «مِنْ أَيْنَ قَدِمْتَ أَيُّها الفَتى؟ وماذا تُريدُ مِنْ بِلادِ الأَنْدَلُسِ؟»

قالَتْ عائِشَةُ: «جِئْتُ مِنْ دِمَشْقَ، وأُريدُ أَنْ أَلْحَقَ بِجَيْشِ طارِقٍ.»

قالَتْ فُلورِنْدا: «حَسَنًا، إِنَّ أَبي «يُولْيان» حاكِمُ سَبْتَةَ في جَيْشِ طارِقٍ، وأَنا فُلورِنْدا ذاهِبَةٌ لِلِقائِهِ. ومِنْ حُسْنِ الطّالِعِ أَنَّنا نُبْحِرُ مَعًا؛ سَعْيًا إِلى مَكانٍ واحِدٍ.»

قالَتْ عائِشَةُ: «ولِماذا أَبوكِ في جَيْشِ طارِقٍ، وهُوَ مِنْ رِجالِ

الحُكْمِ القُوطِيِّ؟»

قالَتْ فُلورِنْدا: «لَقَدْ كُنْتُ في قَصْرِ المَلِكِ، كَما هِيَ عادَةُ الأُمَراءِ في أَنْ يُرْسِلوا بَناتِهِمْ لِيَتَعَلَّمْنَ آدابَ المُلوكِ، وفُنونَ القُصورِ، ولَكِنّي لَمَحْتُ في عَيْنَيْ لَذْريقَ وكَلِماتِهِ، ما جَعَلَني أَفِرُّ بِعِرْضي مِنَ القَصْرِ، فَأَقْسَمَ أَبي أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُ، وأَنْ يَكونَ حَرْبًا عَلَيْهِ، فَعاهَدَ قائِدَكُمْ ابنَ نُصَيْرٍ ويَسَّرَ لَهُ طَريقَ الفَتْحِ.»

قالَتْ عائِشَةُ: «لَقَدْ كانَ أَبوكِ رَجُلًا حَكيمًا! عَرَفَ أَنَّ سَيْلَ العَرَبِ لا يُوقِفُهُ سَدٌّ مَهْما تَكُنْ قُوَّتُهُ، فَآثَرَ أَنْ تكونَ لَهُ يَدٌ مَعَ المُنْتَصِرِ.»

قَالَتْ فُلورِنْدا: «لا تَقْسُ، أَيُّها الفَتى، عَلى أَبي؛ فَلَوْلا مُساعَدَتُهُ ما كانَ الفَتْحُ ولا كانَ النَّصْرُ.»

قالَتْ عائِشَةُ: «عَجَبًا لَكِ أَيَّتُها الفَتاةُ! أنا أَصِفُ أباكِ بِالذَّكاءِ والحِكْمَةِ، وأَنْتِ تَصِفينَهُ بِخِيانَةِ قَوْمِهِ، فَأَيُّنا يَقْسو عَلى الرَّجُلِ؟»

قالَتْ فُلورِنْدا: «هَذا جَدَلٌ عَلى طَريقَتِكُمُ العَرَبِيَّةِ، فَلْيَكُنْ. ما اسْمُكَ؟»

قالَتْ عائِشَةُ: «اِسْمي «أُسامَةُ الفِهْري».»

* * *

وأَخيرًا بَلَغَتِ السَّفينَةُ جَبَلَ الفَتْحِ أَوْ جَبَلَ طارِقٍ، وأَلْقَتْ مَراسِيَها،

وخَرَجَ الفَتى العَرَبِيُّ أُسامَةُ والفَتاةُ الإسْبانِيَّةُ فُلورِنْدا يُسْرِعانِ السَّيْرَ لِلْوُصولِ إلى جَيْشِ طارِقٍ. وبَلَغا مَدينَةَ إسْتِجَةَ وَقْتَ الأَصيلِ، وأَوْمَأَتْ عائِشَةُ لِرَباحٍ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ مَكانِ المُغيثِ في حَذَرٍ وتَلَطُّفٍ، ووَضَعَتْ عَلى وَجْهِها لِثامًا عَلى عادَةِ الأَشْرافِ مِنَ العَرَبِ. فالْتَفَتَتْ إلَيْها أَوْ إلَيْهِ فُلورِنْدا وقالَتْ:

«كُنْتُ مُتَحَيِّرَةً بِأَيِّ لَقَبٍ أَدْعوكَ، يا أُسامَةُ، أَمّا الآنَ فَقَدْ يَسَّرْتَ عَلَيَّ الأَمْرَ، وأَعْفَيْتَني مِنَ البَحْثِ. هَلْ يُضايِقُكَ أَنْ أَدْعُوَكَ العَرَبِيَّ المُلَثَّمَ؟»

قالَتْ عائِشَةُ: «لَكِ ما تَشائِينَ، يا فُلورِنْدا.»

وعادَ رَباحٌ لِيُخْبِرَ عائِشَةَ أَوْ أُسامَةَ بِمَكانِ المُغيثِ، وأَنَّهُ قَدِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ القائِدَيْنِ عَلى أَنْ يَزْحَفَ طارِقٌ إلى طُلَيْطِلَةَ، في حينِ يَزْحَفُ المُغيثُ بِجَيْشِهِ إلى قُرْطُبَةَ.

وتَحَرَّكَتِ الفَتاتانِ نَحْوَ جَيْشَيِ القائِدَيْنِ، والْتَقَتْ فُلورِنْدا بِأَبيها، ورَغِبَ إلَيْها في أَنْ تَنْزِلَ مَعَهُ، ولكِنَّها قالَتْ لَهُ: «لَقَدْ أَسَرْتُ فارِسًا عَرَبِيًّا، وسَتَكونُ خَيْمَتي إلى جِوارِهِ.»

قالَ أَبوها في دَهْشَةٍ: «وكَيْفَ أَسَرْتِهِ؟»

قالَتْ: «أَسَرْتُهُ بِغَيْرِ السَّيْفِ والرُّمْحِ.»

فَابْتَسَمَ أَبوها وقالَ: «أَسَرْتِهِ بِلَحْظٍ كَالسَّهْمِ، وبَسْمَةٍ أَحَدَّ مِنَ السَّيْفِ. إِنَّني سَأَتْبَعُ جَيْشَ طارِقٍ إلى طُلَيْطِلَةَ، فَهَلْ تَأْتينَ مَعَنا؟»

قالَتْ فُلورِنْدا: «لا، سَأَتْبَعُ الجَيْشَ الَّذي يَكونُ فيهِ أَسيري.»

ونَصَبَتْ فُلورِنْدا خَيْمَتَها إلى جِوارِ خَيْمَةِ عائِشَةَ فَقالَتْ لَها عائِشَةُ: «إِنَّني سَأَتْبَعُ الجَيْشَ الزّاحِفَ إلى قُرْطُبَةَ، وعَلَيْكِ أَنْ تَنْتَظِري عَوْدَتي.»

لَكِنْ فُلورِنْدا أَسْرَعَتْ تَقولُ: «لا، سَيَكونُ فَرَسي إلى جِوارِ فَرَسِكَ، وسَأَتْبَعُكَ مِثْلَ ظِلِّكَ حَيْثُ تَغْدو أَوْ تَروحُ.»

وتَحَرَّكَ جَيْشُ المُغيثِ إلى قُرْطُبَةَ، وكانَ البَرْدُ قاسِيًا، والرّيحُ صَرْصَرًا عاتِيَةً. ورَكِبَتْ عائِشَةُ أَوِ الفارِسُ أُسامَةُ الفِهْرِيُّ، ورَكِبَتْ فُلورِنْدا. وكانَتْ عائِشَةُ تَتْبَعُ رايَةَ المُغيثِ، ولا تَرْفَعُ بَصَرَها عَنْهُ، وتَمْشي وَراءَهُ كَظِلِّهِ.

ومَضى الجَيْشُ في طَريقِهِ، تَشْتَعِلُ الحَماسَةُ في قَلْبِهِ، ويَدْفَعُهُ النَّصْرُ إلى تَحْقيقِ نَصْرٍ آخَرَ، حَتّى إذا كانَ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْ نَهْرِ شَقُنْدَةَ، وكانَتِ الشَّمْسُ تُلَمْلِمُ خُيوطَها الذَّهَبِيَّةَ لِتَغيبَ وَراءَ الأُفُقِ - لَمَحَتْ عائِشَةُ فارِسًا إِسْبانِيًّا شاهِرًا سَيْفَهُ، يَهُمُّ بِاغْتِيالِ المُغيثِ، ولَكِنَّ يَدَها كانَتْ أَسْرَعَ مِنْ يَدِهِ، فَهَوَتْ عَلَيْهِ بِضَرْبَةٍ عاجِلَةٍ قاضِيَةٍ، أَطارَتْ رَأْسَهُ في

الهَواءِ، ثُمَّ مَرَقَتْ (اخْتَرَقَتْ في سُرْعةٍ) مِنْ بَيْنِ الجُنودِ كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ، فَلَمْ يَعْرِفْ لَها أَحَدٌ طَريقًا.

عَجِبَ المُغيثُ مِنْ هَذا الأَمْرِ، وأَمَرَ رِجالَهُ بِالبَحْثِ عَنْ هَذا الفارِسِ الَّذي أَنْقَذَ حياتَهُ؛ لِيُوَفِّيَهُ جَزاءَ صَنيعِهِ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْثُروا لَهُ عَلى أَثَرٍ، فَقَدْ ذابَ بَيْنَ الجُنودِ كَما يَذوبُ المِلْحُ في الماءِ.

قالَ مالِكٌ الجُرْهُمِيُّ، وهُوَ مِنْ خاصَّةِ المُغيثِ: «إِنَّني لَمْ أَرَ وَجْهَهُ، فَقَدْ كانَ يَضَعُ لِثامًا، لَعَلَّهُ مَلَكٌ أَرْسَلَهُ اللهُ لِيُنْقِذَكَ ويَحْمِيَكَ، فَأَنْتَ خَرَجْتَ جِهادًا في سَبيلِهِ، ودِفاعًا عَنْ دينِهِ.»

قالَ المُغيثُ: «عَجيبٌ أَمْرُهُ! لَوْ أَنَّ غَيْرَهُ فَعَلَ ذَلِكَ لَتاهَ بِهِ فَخْرًا، لأَنَّهُ أَنْقَذَ حَياةَ القائِدِ.»

قالَ مالِكٌ: «سَنَعْرِفُهُ بَعْدَ انْتِهاءِ المَعْرَكَةِ - إنْ شاءَ اللهُ - إذا أَبْقَتْ عَلَيْهِ شَجاعَتُهُ حَيًّا.»

وعَبَرَ الجَيْشُ النَّهَرَ، ونَظَرَ الجُنودُ فَرَأَوْا مَدينَةَ قُرْطُبَةَ عالِيَةَ الأَسْوارِ، مَنيعَةَ الحُصونِ، قَدْ أَغْلَقَ الحُرّاسُ أَبْوابَها، فَما فيها مَنْفَذٌ لِمُهاجِمٍ. ونَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في حَيْرَةٍ: كَيْفَ يَنْفُذونَ إلى هَذِهِ المَدينَةِ الحَصينَةِ المَنيعَةِ؟

وهَطَلَ المَطَرُ غَزيرًا، واشْتَدَّ البَرْدُ، واشْتَدَّتْ مَعَهُ الحَيْرَةُ، ولَعَلَّ بَعْضَ الخَوَرِ (الضَّعْفِ) أَوِ اليَأْسِ قَدْ دَبَّ في صُدورِ بَعْضِ الجُنودِ. والْتَفَتَ المُغيثُ إلى أَعْوانِهِ وأَرْكانِهِ، ثُمَّ قالَ: «لَيْسَ هُناكَ سَبيلٌ لاقْتِحامِ المَدينَةِ إلّا أنْ يَتَسَلَّقَ أَحَدُ الرِّجالِ سورَها فَيُغافِلَ الحُرّاسَ، ويَفْتَحَ لَنا أَحَدَ أَبْوابِها.»

فَقالَ أَحَدُهُمْ: «إنَّ الحُرّاسَ لا يَتْرُكونَ الأَبْوابَ في هَذِهِ الحالِ، وإنَّ المُتَسَلِّقَ لا بُدَّ أَنْ يَلْقى حَتْفَهُ قَبْلَ أَنْ يُنَفِّذَ مُرادَهُ.»

رَدَّ المُغيثُ في نَبْرَةٍ غاضِبَةٍ: «اُسْكُتْ، يا أَخا الجُبْنِ! ما دَعَوْتُ الجُبَناءَ إلى مِثْلِ هَذا العَمَلِ، وإنَّما دَعَوْتُ مَنْ يَرى الشَّهادَةَ في سَبيلِ اللهِ طَريقًا إلى الجَنَّةِ.»

فَزادَ الْتِفاتُ القادَةِ والجُنودِ بَعْضِهِمْ إلى بَعْضٍ، وتَصارَعَ في قُلوبِهِمُ الخَوْفُ والرَّغْبَةُ في التَّضْحِيَةِ والفِداءِ، ولَكِنَّ حَيْرَتَهُمْ لَمْ تَدُمْ طَويلًا، فَسَرْعانَ ما أَبْصَروا فارِسًا مُلَثَّمًا يَتَسَلَّقُ - في خِفَّةٍ وحَذَرٍ - شَجَرَةَ زَيْتونٍ، كانَتْ إلى جِوارِ السّورِ، ويَتَعَلَّقُ بِأَحَدِ فُروعِها، ويَتْرُكُ جِسْمَهُ يَتَأَرْجَحُ يَمْنَةً ويَسْرَةً، وهُوَ في كُلِّ مَرَّةٍ يَزيدُ مِنِ اتِّساعِ حَرَكَتِهِ، حَتّى هَبَطَ فَوْقَ السّورِ، فَصاحَ المُغيثُ ومالِكٌ الجُرْهُمِيُّ في صَوْتٍ واحِدٍ:



«إِنَّهُ الفارِسُ إيّاهُ! البَطَلُ الَّذي يَحْمِلُ روحَهُ عَلى كَفِّهِ، ويُقَدِّمُها في سَبيلِ رَبِّهِ!»

وكانَتْ لَحْظَةً قاسِيَةً رَهيبَةً، تَعارَكَ فيها اليَأْسُ والرَّجاءُ، حَتّى هَبَطَتْ عائِشَةُ أَوْ هَبَطَ الفارِسُ فَوْقَ السّورِ، ونَظَرَتْ فَإِذا الحُرّاسُ قَدْ أَضْناهُمُ التَّعَبُ، وأَرْهَقَهُمُ السَّهَرُ، وأَجْهَدَهُمُ البَرْدُ والمَطَرُ، فَأَوَوْا إلى سَقيفَةٍ (خَيْمَةٍ) تَحْميهِمْ، والْتَفّوا بِأَغْطِيَتِهِمْ، وراحوا يَغِطّونَ في نَوْمٍ عَميقٍ، مُطْمَئِنّينَ إلى أَنَّ البَرْدَ والمَطَرَ والأَسْوارَ سَتَمْنَعُ العَدُوَّ مِنَ الإِقْدامِ، وتَحولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الهُجومِ والاقْتِحامِ.

واغْتَنَمَتْ عائِشَةُ هَذِهِ الفُرْصَةَ الَّتي سَنَحَتْ، وهَبَطَتْ - في خِفَّةٍ وحَذَرٍ كَذَلِكَ - أَمامَ أَحَدِ الأَبْوابِ، وشَرَعَتْ تُعالِجُ فَتْحَهُ، فاسْتَعْصى عَلَيْها، فَقَدْ كانَتْ مَزاليجُهُ (أَقْفالُهُ) مِنَ الحَديدِ الضَّخْمِ الثَّقيلِ.

وسَعَلَ أَحَدُ الحُرّاسِ تَحْتَ غِطائِهِ، فَاهْتَزَّتْ يَدُها، واضْطَرَبَتْ أَعْصابُها، وكادَ يُدْرِكُها اليَأْسُ، لَوْلا بَقِيَّةٌ مِنْ أَمَلٍ، ورَغْبَةٌ صادِقَةٌ في التَّضْحِيَةِ، فَاسْتَجْمَعَتْ قُواها، وعالَجَتْ مَزاليجَ البابِ حَتّى اسْتَطاعَتْ أَنْ تَفْتَحَها.

وتَدَفَّقَ الجُنودُ مُنْدَفِعينَ كَأَنَّهُمُ السَّيْلُ المُنْهَمِرُ، وهُمْ يَصيحونَ

صَيْحَةَ النَّصْرِ والظَّفَرِ: «اللهُ أَكْبَرُ! اللهُ أَكْبَرُ!» فَفَرَّ جَيْشُ المَدينَةِ أَمامَهُمْ، ووَلّاهُمُ الأَدْبارَ!

ونَظَرَتْ عائِشَةُ فَأَبْصَرَتْ خادِمَها رَباحًا وفُلورِنْدا في الدّاخِلينَ، فَأَوْمَأَتْ إِلَيْهِما، فَتَبِعاها. وانْتَهَزَتِ انْشِغالَ الجَيْشِ بِجَمْعِ الأَسْرى والغَنائِمِ، فَانْسَلَّتْ خارِجَةً، مُبْتَعِدَةً عَنِ الجَيْشِ وغَنائِمِهِ وأَسْراهُ، فَصاحَتْ بِها فُلورِنْدا: «إِلى أَيْنَ؟»

أَجابَتْ عائِشَةُ: «إِلى الخِيامِ الَّتي ضَرَبْناها خارِجَ المَدينَةِ.»

قالَتْ فُلورِنْدا: «ولِماذا؟ أَلَمْ تَأْتِ لِفَتْحِ قُرْطُبَةَ؟»

قالَتْ عائِشَةُ: «لَقَدْ فَتَحْتُها.» وضَحِكَتْ.

قالَتْ فُلورِنْدا: «فَتَحْتَها وتَفِرُّ مِنَ الشَّرَفِ الرَّفيعِ الَّذي حَصَّلْتَهُ بِفَتْحِها؟»

قالَتْ عائِشَةُ: «فِرَّ مِنَ الشَّرَفِ يَتْبَعْكَ الشَّرَفُ!»

قالَتْ فُلورِنْدا: «إِنَّ أَمْرَكَ لَعَجيبٌ، يا أُسامَةُ، وحَقِّ المَسيحِ!»

قالَتْ عائِشَةُ: «لَوْ عَرَفْتِ ما أَعْرِفُ، يا «فُلورِنْدا»، لانْقَضى عَجَبُكِ.»

قالَتْ فُلورِنْدا: «عَلى أَيَّةِ حالٍ، فَإِنَّ القائِدَ لَنْ يَتْرُكَ البَطَلَ الهُمامَ

والفارِسَ الشُّجاعَ دونَ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ، ويُكافِئَهُ.»

وما إِنْ فَرَغَ المُغيثُ مِنْ تَصْريفِ أُمورِ الفَتْحِ، حَتّى الْتَفَتَ إِلى أَقْرَبِ أَعْوانِهِ مالِكٍ الجُرْهُمِيِّ، وسَأَلَهُ:

«أَيْنَ الفَتى المُلَثَّمُ الَّذي فَتَحَ لَنا البابَ، وكانَ سَبَبَ هَذا النَّصْرِ المُبينِ؟»

قالَ مالِكٌ: «لَقَدْ بَحَثْتُ عَنْهُ حَتّى عَيِيتُ فَلَمْ أَعْثُرْ لَهُ على أَثَرٍ، ولَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَدُلَّني عَلَيْهِ.»

قالَ المُغيثُ: «اِبْحَثْ عَنْهُ ثانِيَةً وثالِثَةً و.. حَتّى تَعْثُرَ عَلَيْهِ.»

قالَ مالِكٌ: «سَمْعًا وطاعَةً أَيُّها القائِدُ، وإِنْ كانَ يَغْلِبُ عَلى ظَنّي أَنَّهُ الْتَحَقَ بِجَيْشِ «طارِقٍ».»

ومَرَّتْ أَيّامٌ، والبَحْثُ يَجْري عَلى قَدَمٍ وساقٍ، لَعَلَّهُمْ يَعْثُرونَ عَلى هَذا الفَتى الشَّهْمِ الهُمامِ، ولَكِنْ دونَ جَدْوى.

* * *

كانَتْ فُلورِنْدا في هَذِهِ الأَيّامِ تُديرُ في رَأْسِها فِكْرَةً، وتُراوِدُها خاطِرَةٌ: لَقَدِ اسْتَقَرَّ في خَلَدِها أَنَّ أُسامَةَ الفِهْرِيَّ سَيَكونُ لَها زَوْجًا، وهُوَ قَدْ قامَ بِأَعْمالٍ بُطولِيَّةٍ رائِعَةٍ، يَعْجِزُ عَنْها الكَثيرونَ، ويُسْعِدُها أَنْ يَنالَ

زَوْجُ المُسْتَقْبَلِ حَظًّا مَوْفورًا مِنَ المَكانَةِ الرَّفيعَةِ لَدى القائِدِ، فَتَجْعَلَهُ مِنْ كِبارِ قُوّادِهِ ومُعاوِنيهِ، فَلِماذا لا تَدُلُّ القائِدَ عَلَيْهِ؟

وعَزَمَتْ على تَنْفيذِ فِكْرَتِها، فَتَسَلَّلَتْ مُسْرِعَةً مِنْ خَيْمَتِها ذاتَ صَباحٍ، وأَسْرَعَتْ إلى المُغيثِ، وقالَتْ لَهُ:

«سَيِّدي القائِدَ، عَرَفْتُ أَنَّكَ تَبْحَثُ عَنِ الفتى المُلَثَّمِ، فَهَلْ لي أَنْ أَدُلَّكَ عَلى مَكانِهِ؟»

وبَدَتِ الدَّهْشَةُ عَلى وَجْهِ المُغيثِ، وأَلْقى شَيْئًا كانَ في يَدِهِ، وقالَ لَها: «أَيْنَ هُوَ، يا فَتاةُ؟»

قالَتْ فُلورِنْدا: «لِيَرْكَبْ مَعي سَيِّدي القائِدُ لأُرِيَهُ إِيّاهُ.»

وأَمَرَ المُغيثُ أَنْ يُسْرَجَ جَوادُهُ، وانْطَلَقَ مَعَ فُلورِنْدا إلى حَيْثُ المَكانُ الَّذي يَخْتَفي فيهِ الفَتى المُلَثَّمُ. ولَمّا اقْتَرَبا مِنْ خَيْمَةِ عائِشَةَ قالَتْ فُلورِنْدا: «هَذِهِ هِيَ خَيْمَتُهُ».

وأَشارَ إِلَيْها المُغيثُ أَنْ تَبْتَعِدَ، وتَتْرُكَهُ وَحْدَهُ لِيُفاجِئَهُ، وحَتّى لا يَتَّهِمَها بِخِيانَتِهِ، فَابْتَعَدَتْ.

وانْدَفَعَ المُغيثُ إلى داخِلِ الخَيْمَةِ، وشَدَّ ما كانَتْ دَهْشَتُهُ مِنَ المَنْظَرِ الَّذي رَآهُ، حَتّى ظَنَّ أَنَّهُ أَخْطَأَ الطَّريقَ، أَوْ أَنَّ الفَتاةَ أَخْطَأَتْ في

تَعْيينِ الخَيْمَةِ وتَحْديدِها.. إنَّهُ لَمْ يَرَ فارِسًا مُدَجَّجًا بِالسِّلاحِ، ولَكِنَّهُ رَأى فَتاةً رائِعَةَ الجَمالِ، كَأَنَّها فِلْقَةُ القَمَرِ، فَلَمّا دقَّقَ النَّظَرَ وحَقَّقَهُ صاحَ بِصَوْتٍ عالٍ، تَمْتَزِجُ فيهِ الدَّهْشَةُ بِالفَرْحَةِ: «عائِشَةُ؟!»

قالَتْ: «نَعَمْ، عائِشَةُ.»

قالَ: «ومَنْ جاءَ بِكِ إلى هُنا؟»

قالَتْ: «جِئْتُ بِنَفْسي لأَراكَ، ولأَكونَ إلى جِوارِكَ مُجاهِدَةً في سَبيلِ اللهِ.»

قالَ: «إنَّكِ، يا عائِشَةُ، فَخْرٌ لِنِساءِ العَرَبِ أَجْمَعينَ، ومَثَلٌ عالٍ سَيَظَلُّ نِبْراسًا مُضيئًا لِكُلِّ الفَتَياتِ العَرَبِيّاتِ. لَقَدْ فَتَحْتِ بابًا كانَ هُوَ بابَ الفَتْحِ المُبينِ، ولَنْ أَنْسى أَبَدَ الدَّهْرِ أَنَّكِ أَنْقَذْتِ حَياتي مِنْ غَدْرِ الغادِرينَ.»

وأَمْسَكَ بِيَدَيْها، واحْتَوَتْها عَيْناهُ، وقَلْبُهُ يَخْفُقُ خَفَقانًا شَديدًا لِرَوْعَةِ اللِّقاءِ، وعَظَمَةِ الوَفاءِ.

واسْتَبْطَأَتْ فُلورِنْدا خُروجَ القائِدِ والفَتى العَرَبِيِّ أُسامَةَ الفِهْرِيِّ، فَذَهَبَتْ إلى الخَيْمَةِ، وراعَها ما أَبْصَرَتْ! أَبْصَرَتِ المُغيثَ يُمْسِكُ بِيَدَيْ فَتاةٍ بارِعَةِ الجَمالِ، ويَحْتَويها بِنَظَرِهِ، وتَكادُ تَسْمَعُ دَقّاتِ قَلْبِهِ،

وهُوَ يَتَمَلّاها بِعَيْنَيْهِ.

فَلَمّا أَحَسَّ بِمَقْدَمِها قالَ لَها: «إِنَّها خَطيبَتي، يا فَتاةُ!»

قالَتْ فُلورِنْدا: «لا، أَيْنَ أُسامَةُ الفِهْرِيُّ؟»

فَأَشارَتْ عائِشَةُ إلى ثِيابِ أَخيها عَبْدِ اللهِ الَّتي كانَتْ تَتَنَكَّرُ فيها، وقالَتْ: «هَذا هُوَ، يا فُلورِنْدا.»

فَعَضَّتْ فُلورِنْدا أَصابِعَها، وقالَتْ: «ضاعَ حُبّي!»

قالَتْ عائِشَةُ: «يا فَتاتي، لَسْتِ أَوَّلَ مَنْ خابَتْ في الحُبِّ آمالُهُ!»

قالَ المُغيثُ: «سَنَتَزَوَّجُ اللَّيْلَةَ، يا عائِشَةُ.»

* * *

ثابِت قُطنَة
وحاجِبُ الفيل

ثابِتٌ شاعِرٌ فارِسٌ مِغْوارٌ، لا يُشَقُّ غُبارُهُ، ولا تُلْحَقُ آثارُهُ. لَهُ دِرايَةٌ واسِعَةٌ بِأَساليبِ الحُكْمِ، وخِبْرَةٌ وافِيَةٌ بِطَرائِقِ الإدارَةِ. كانَ مُقَرَّبًا أثيرًا عِنْدَ «يَزيدَ بْنِ المُهَلَّبِ» والي خُراسانَ، زَمَنَ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ، وكانَ يُعْهَدُ إلَيْهِ بِكَثيرٍ مِنْ أعْمالِ الثُّغورِ، فَيَنْهَضُ بِها في كِفايَةٍ واقْتِدارٍ.

ويَشْهَدُ بِشَجاعَتِهِ وفُروسِيَّتِهِ، وبِكِفايَتِهِ واقْتِدارِهِ، هَذا اللَّقَبُ (قُطْنَةُ)، فَقَدِ اكْتَسَبَهُ نَتيجَةَ خَوْضِهِ مَعْرَكَةً مِنَ المَعارِكِ، فَأَصابَهُ سَهْمٌ في إحْدى عَيْنَيْهِ، فَوَضَعَ عَلَيْها قُطْنَةً، فَعُرِفَ بِهَذا اللَّقَبِ.

وقَدْ قالَ يَهْجو نَفْسَهُ ذاتَ مَرَّةٍ:

لا يَعْرِفُ النّاسُ مِنْهُ غَيْرَ قُطْنَتِهِ

وما سِواها مِنَ الأَنْسابِ مَجْهولُ

وقالَ لِجَماعَةٍ مِنْ أَصْحابِهِ، وكَأَنَّهُ كانَ يَنْظُرُ بِظَهْرِ الغَيْبِ: «إنَّ هَذا

بَيْتٌ سَيَهْجوني بَعْضُ الشُّعَراءِ بِهِ أَوْ بِمِثْلِهِ، فَاشْهَدوا أَنَّني قائِلُهُ.»

قالوا لَهُ: «وَيْحَكَ! واللهِ لَوْ بالَغَ عَدُوُّكَ في هَجْوِكَ وقَدْحِكَ ما اسْتَطاعَ أَنْ يَزيدَ على ذَلِكَ شَيْئًا.»

فَقالَ لَهُمْ: «إنَّ هَذا المَعْنى قَدْ يَجولُ في خاطِرِ غَيْري، فَيَرْميني بِهِ، فَأَكونُ قَدْ سَبَقْتُهُ إِلَيْهِ، ولَيْسَ لَهُ مِنْ هِجائِهِ إلا السَّرِقَةُ، وهَذِهِ تَكْفيهِ عارًا ومَثْلَبَةً!»

وقَدْ صَدَقَتْ فِراسَتُهُ، وتَحَقَّقَتْ نُبوءَتُهُ، وذَلِكَ عِنْدَما وَفَدَ الشّاعِرُ حاجِبٌ عَلى «يَزيدَ بْنِ المُهَلَّبِ» لِيَمْدَحَهُ، ويَنالَ عَطاءَهُ ورِفْدَهُ، فَأَنْشَدَهُ قَصيدَةً طَويلَةً، وَصَفَ فيها رِحْلَتَهُ الشّاقَّةَ، والمَسافَةَ الشّاسِعَةَ بَيْنَ بِلادِهِ وخُراسانَ الَّتي قَطَعَها في تِسْعينَ لَيْلَةً تامَّةً، يَمْتَطي فيها ناقَتَهُ البَيْضاءَ الَّتي يَخْتَلِطُ بَياضُها بِالشُّقْرَةِ، فَأَرْهَقَها وأَضْناها، لِطولِ الرِّحْلَةِ، وبُعْدِ الشُّقَّةِ.

ولَكِنَّ الأَمَلَ الحُلْوَ الَّذي كانَ يُداعِبُهُ ويَتَراءى لَهُ في كَرَمِ المَمْدوحِ، وسَعَةِ جودِهِ - جَعَلَهُ لا يَهْدَأُ ولا يَسْتَقِرُّ، ولا يَجِدُ سَبيلًا إلى الرّاحَةِ، إلّا بَعْدَ أَنْ يُلْقِيَ عَصاهُ بَيْنَ يَدَيْ يَزيدَ، وهُوَ لا يَبْتَغي الكَثيرَ مِنَ العَطاءِ، فَحَسْبُهُ دِرْعٌ سابِغَةٌ، وسَيْفٌ بَتّارٌ، ورُمْحٌ قَوِيٌّ، وفَرَسٌ أَصيلٌ؛ فَهُوَ امْرُؤٌ

مِنْ عُصْبَةٍ رَفيعَةِ الشَّأْنِ، أصيلَةِ النَّسَبِ، كَريمَةِ الحَسَبِ.

ولَمّا فَرَغَ حاجِبٌ مِنْ إنْشادِهِ قالَ لَهُ يَزيدُ: «سَمِعْنا قَصيدَتَكَ، وعَرَفْنا ما اشْتَرَطْتَ لِنَفْسِكَ.»

وأَمَرَ لَهُ بِما رَغِبَ فيهِ.

ولَكِنَّ حاجِبًا ضاقَتْ نَفْسُهُ بما سَمِعَ، وسُدَّتْ عَلَيْهِ مَنافِذُ الطُّرُقِ، فَما لِهَذِهِ الأَشْياءِ الهَيِّنَةِ قَطَعَ المَسافَةَ الشّاسِعَةَ، وتَجَشَّمَ صِعابَ الرِّحْلَةِ الشّاقَّةِ، وأَخَذَ يَحُكُّ ذَقَنَهُ، يَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ مِنْ هَذِهِ الوَرْطَةِ الَّتي أَوْقَعَ نَفْسَهُ فيها.

ولَمْ يَطُلْ بِهِ التَّفْكيرُ حَتّى قالَ: «أَصْلَحَ اللهُ الأَميرَ وأَبْقاهُ. حُجَّتي فيما قُلْتُ واضِحَةٌ بَيِّنَةٌ، هِيَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**﴾.»

فارْتَسَمَتْ بَسْمَةٌ عَريضَةٌ على شَفَتَيْ يَزيدَ، إعْجابًا بِبَراعَةِ حاجِبٍ وحُسْنِ تَخَلُّصِهِ، وتَرَكَ لَهُ ما وَهَبَهُ، وزادَهُ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ.

وحينَئِذٍ دَبَّتِ الغَيْرَةُ في نَفْسِ ثابِتٍ، وأَنْشَبَ الحَسَدُ أَظْفارَهُ في صَدْرِهِ، فَأَخَذَ يُهَوِّنُ مِنْ شَأْنِ حاجِبٍ وشِعْرِهِ، وقالَ لَهُ:

«ما أَعْجَبَ أَمْرَكَ! وما أَعْجَبَ ما وَفَدْتَ بِهِ مِنْ بَلَدِكَ في تِسْعينَ لَيْلَةً! تَمْدَحُ الأَميرَ بِبَيْتَيْنِ اثْنَيْنِ، وتَسْأَلُهُ حَوائِجَكَ وتُفْصِحُ عَنْ رَغَباتِكَ في عَشَرَةِ أَبْياتٍ، وتَخْتِمُ شِعْرَكَ بِبَيْتٍ تَفْخَرُ فيهِ بِنَفْسِكَ وقَوْمِكَ عَلى الأَميرِ، حَتّى إذا أَعْطاكَ الأَميرُ ما طَلَبْتَ، وقَضى لَكَ حَوائِجَكَ الَّتي أَبَنْتَ - أَكْذَبْتَ نَفْسَكَ وكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ تُريدُ ما قُلْتَهُ، أَوْ كَأَنَّكَ كُنْتَ تَخْدَعُ الأَميرَ بِقَوْلِكَ!»

ولَكِنَّ الأَميرَ فَطِنَ لِما يَغْلي في صَدْرِ ثابِتٍ مِنْ حَسَدٍ، وما يَمورُ (يَثورُ) في قَلْبِهِ مِنْ بُغْضٍ، فَقالَ: «صَهْ، يا ثابِتُ! فَإِنّا لا نُخْدَعُ ولَكِنْ نَتَخادَعُ!»

وأَدْرَكَ حاجِبٌ ما يَنْطَوي عَلَيْهِ صَدْرُ ثابِتٍ مِنْ حِقْدٍ وبَغْضاءَ ومِنْ غَيْرَةٍ وحَسَدٍ، فَأَخَذَ يَهْجوهُ، ولَجَّ في هَجْوِهِ وقَدْحِهِ (عَيبِهِ)، ولَمْ يَقِفْ عِنْدَ هِجائِهِ وَحْدَهُ، بَلْ تَجاوَزَهُ إلى قَبيلَتِهِ ونَسَبِهِ.

ومِمّا زادَ الأَمْرَ سُوءًا أَنَّ حاجِبًا دَخَلَ مَرَّةً أُخْرى عَلى يَزيدَ وعِنْدَهُ ثابت قُطْنَة، فَقَدْ كانَ بِالكادِ لا يُفارِقُهُ، ولَمّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قالَ لَهُ يَزيدُ: «تَكَلَّمْ، يا حاجِبُ.»

قالَ حاجِب: «يَأْذَنُ لِيَ الأَميرُ في أَنْ أُنْشِدَهُ بَعْضَ أَبْياتٍ جَرى بِها خاطِري.»

قالَ يَزيد: «لا تَبْدَأْ في الإنْشادِ حَتّى تَسْأَلَ حاجَتَكَ.»

لَكِنَّ حاجِبًا لَمْ يَسْأَلْ حاجَتَهُ، وإنَّما قالَ: «أَيُّها الأَميرُ، إنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ مَهْما يُطْنِبْ (يُسْهِبْ) في وَصْفِكَ، ويُبالِغْ في مَدْحِكَ، أَنْ يُوَفِّيَكَ حَقَّكَ، ولَكِنَّ المُجْتَهِدَ مُحْسِنٌ وإنْ قَصُرَ باعُهُ، فَلا تَمْنَعْني مِنَ الإنْشادِ، وأْذَنْ لي فيهِ، فَإِذا سَمِعْتَ فَجُودُكَ وكَرَمُكَ أَوْسَعُ بابًا، وأَكْثَرُ نَوالًا مِنْ مَسْأَلَتي.»

طَرِبَ الأَميرُ بِقَوْلِهِ، وسُرَّ بِهِ خاطِرُهُ، وقالَ لَهُ: «هاتِ ما عِنْدَكَ؛ فَما زِلْتَ مُجيدًا مُحْسِنًا!»

فَطَفِقَ يُنْشِدُهُ أَبْياتًا يُطْري (يَمْدَحُ) فيها شَجاعَتَهُ وفُروسِيَّتَهُ، وانْتِصارَهُ عَلى الْفُرْسانِ الشُّجْعانِ، وأَنَّ ذَلِكَ دَأْبُهُ مُنْذُ يَفاعَتِهِ، ولَمْ تَقْعُدْ بِهِ عَنْ هَذِهِ الشَّجاعَةِ والبَسالَةِ كُهولَتُهُ، وتُضارِعُ فُروسِيَّتَهُ مُروءَتُهُ وشَهامَتُهُ، الَّتي جَبَرَ بِها خَواطِرَ كَثيرٍ مِنَ النّاسِ، وأَقالَ عَثْرَةَ كَثيرٍ مِنَ الكِرامِ الَّذينَ أَصابَهُمُ الدَّهْرُ بِخُطوبِهِ وأَحْداثِهِ، فَسَتَرَ كِبْرِياءَهُمْ ورَحِمَ ضَعْفَهُمْ.

وما إنْ سَمِعَ يَزيدُ شِعْرَ حاجِبٍ وثَناءَهُ حَتّى اهْتَزَّتْ أَرْيَحِيَّتُهُ، وهَفَتْ نَفْسُهُ لِعَطائِهِ، فَقالَ لَهُ: «سَلْ حاجَتَكَ، يا حاجِبُ.»

قالَ حاجِبٌ: «إنَّ ما بي مِنَ الضُّرِّ لا يَخْفى عَلى الأَميرِ.»

قالَ الأَميرُ: «قُلْ، يا حاجِبُ.»

قالَ حاجِب: «إذًا لا أُقصِّرُ في طَلَبي، وكَشْفِ حاجَتي، ولا أَسْتَعْظِمُ عَظيمًا أَسْأَلُهُ الأَميرَ، أَعزَّهُ اللهُ، وعَظَّمَ قَدْرَهُ.»

قالَ الأَميرُ: «أَجَلْ. اُطْلُبْ ما تُريدُ نُجِبْكَ. فَلَسْتَ بِما نُعْطيكَ مَهْما نُجْزِلِ العَطاءَ بِأَغْبطَ مِنّا بِشِعْرِكَ وقَوْلِكَ!»

مَلأَتْ هَذِهِ الكَلِماتُ قَلْبَ حاجِبٍ شَجاعَةً، وهَزَّتْ نَفْسَهُ سُرورًا، وشَجَّعَتْهُ عَلى أَنْ يَقولَ: «تَحْمِلُني، وتَخْدِمُني، وتُجْزِلُ جائِزَتي.»

فَأَمَرَ لَهُ يَزيدُ بِخَمْسَةِ أَوْعِيَةٍ مُمْتَلِئَةٍ بِالثِّيابِ، وغُلامَيْنِ وجارِيَتَيْنِ لِخِدْمَتِهِ وخِدْمَةِ أَهْلِهِ، وفَرَسٍ وبَغْلٍ، وخَمْسَةِ آلافِ دِرْهَمٍ.

وتَحَرَّقَ ثابِت قُطْنَة غَيْظًا، وتَمَلْمَلَ في مَجْلِسِهِ كَأَنَّما هُوَ جالِسٌ عَلى الشَّوْكِ أَوْ عَلى الجَمْرِ، وقالَ لِـ حاجِبٍ: «واللهِ لَوْ أَعْطاكَ الأَميرُ عَلى قَدْرِ شِعْرِكَ لَما خَرَجْتَ مِنَ المَجْلِسِ بِمِلْءِ كَفِّكَ نَوًى، ولَكِنَّهُ أَعْطاكَ عَلى قَدْرِهِ.»

وقامَ مِنَ المَجْلِسِ غاضِبًا، قَدْ أَكَلَ الحَسَدُ قَلْبَهُ، وَأَطارَ صَوابَهُ، وأَفْقَدَهُ رُشْدَهُ، فَما يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَقومَ مِنْ مَجْلِسِ الأَميرِ بِهَذِهِ الصّورَةِ!

وراحَ ثابِتٌ يَهْجو حاجِبًا، ويَذُمُّ قَوْمَهُ، ويَسُبُّ أَباهُ وأُمَّهُ، فَلَجَّتِ

الخُصومةُ بَيْنَ الشّاعِرَيْنِ. وكانَ مِنْ بَيْنِ ما هَجا بِهِ حاجِبٌ ثابِتًا قَوْلُهُ:

لا يَعْرِفُ النّاسُ مِنْهُ غَيْرَ قُطْنَتِهِ

وما سِواها مِنَ الأَنْسابِ مَجْهولُ

فَلَمّا سَمِعَ ثابِتٌ هَذا البَيْتَ، وكانَ النّاسُ قَدْ شَهِدوا لَهُ بِهِ مِنْ قَبْلُ؛ قالَ:

هَيْهاتَ ذَلِكَ بَيْتٌ قَدْ سُبِقْتَ بِهِ

فاطْلُبْ لَهُ ثانِيًا يا حاجِبَ الفيلِ

فَصارَ الفيلُ لَقَبًا يُعْرَفُ بِهِ بَيْنَ النّاسِ، كَما كانَتْ قُطْنَةٌ لَقَبًا لِثابِتٍ، ولَكِنْ شَتّانَ بَيْنَ اللَّقَبَيْنِ، وبَيْنَ المَوْقِفَيْنِ: فالأَوَّلُ يَشي بِالثِّقَلِ والخِسَّةِ والدَّناءَةِ، في حينِ يَنْهَضُ الثّاني دَليلًا عَلى الشَّجاعَةِ، وأَمارَةً قَوِيَّةً على الفُروسِيَّةِ والبَسالَةِ.

* * *

جَوابٌ مُسكِتٌ

كانَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوانَ، الخليفَةُ الأُمَوِيُّ، يَعْتَمِدُ عَلى الحَجّاجِ الثَّقَفِيِّ اعْتِمادًا بالِغًا، ويَسْتَنِدُ إِلَيْهِ اسْتِنادًا قَوِيًّا، في تَوْطيدِ أَرْكانِ الدَّوْلَةِ، وقَمْعِ الفِتْنَةِ، ويُطْلِقُ يَدَهُ في تَعَقُّبِ العُصاةِ الَّذينَ يُناصِبونَ الدَّوْلَةَ الأُمَوِيَّةَ العَداءَ، ويَخْرُجونَ عَلَيْها ثائِرينَ، ويَعْمَلونَ عَلى انْتِزاعِ السُّلْطَةِ مِنْها.

وكانَ الحَجّاجُ رَجُلًا بالِغَ الدَّهاءِ، واسِعَ الحيلَةِ، شَديدَ البَطْشِ، يَسْتَعينُ بِمَنْ يُوافِقونَهُ في الطَّبْعِ، ويَسيرونَ مَعَهُ في الاتِّجاهِ، فَيُثَبِّتُ بِهِمْ دَعائِمَهُ وسُلْطانَهُ.

وجاءَ الوَليدُ بَعْدَ أَبيهِ عَبْدِ المَلِكِ فازْدادَ «الحَجّاجُ» قُوَّةً وسُلْطانًا، وتَجَبُّرًا وطُغْيانًا. وكانَ سُلَيْمانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ، ويَضيقُ بِهِ، ولَكِنَّهُ لا يَمْلِكُ مِنَ الأَمْرِ شَيْئًا، ويُشيرُ عَلى أَخيهِ الوَليدِ فَلا تُطاعُ لَهُ مَشورَةٌ.

وَلَمّا قَضى الوَليدُ نَحْبَهُ، وانْتَقَلَ الأَمْرُ إِلى سُلَيْمانَ - كانَ الحَجّاجُ قَدْ

لَقِيَ بارِئَهُ كَذَلِكَ، فعَمَدَ سُلَيْمانُ إلى تَعَقُّبِ أَعْوانِهِ، ومُحاسَبَتِهِمْ على أفْعالِهِمْ، وما اقْتَرَفوهُ في حقِّ النّاسِ مِنْ جَرائِمَ.

وذاتَ يَوْمٍ جاءَهُ مُعاوِنوهُ بِرَجُلٍ اسْمُهُ يَزيدُ بْنُ أَبي مُسْلِمٍ، يَرْسُفُ في قُيودِهِ (يَمْشي فيها رُوَيْدًا)، مِنَ الَّذينَ أَطْلَقَ الحَجّاجُ يَدَهُمْ. وكانَ يَزيدُ رَجُلًا دَميمَ الخِلْقَةِ، سَيِّئَ المَنْظَرِ، قَبيحَ الشَّكْلِ، تَزْدَريهِ العُيونُ، ولا تَأْبَهُ لَهُ، ولَكِنَّهُ كانَ جَبّارًا عَتِيًّا، نابِهًا ذَكِيًّا.



ولَمّا وَقَعَ بَصَرُ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ، احْتَقَرَ أَمْرَهُ وازْدَرى شَكْلَهُ، وتَقَذَّتْ مِنْهُ عَيْناهُ، فَقالَ لَهُ في نُفورٍ وضيقٍ: «لَعَنَ اللهُ الحَجّاجَ، الَّذي جَعَلَكَ قائِدًا وأَميرًا، وأَطْلَقَ يَدَكَ في شُئونِ عِبادِ اللهِ، تَصنَعُ ما تَشاءُ!»

فَلَمْ يَضْطَرِبْ يَزيدُ، ولَمْ يَتَلَعْثَمْ في رَدِّهِ، وقالَ: «يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، إِنَّكَ تَراني اليَوْمَ وقَدْ أَدْبَرَتْ عَنّي الوِلايَةُ، وذَهَبَتِ الإمارَةُ - فَتَحْتَقِرُ شَأْني، وتَسْتَصْغِرُ أَمْري. ولَوْ أَنَّكَ رَأَيْتَني حينَ كانَ الأَمْرُ إِلَيَّ، وكانَتِ الدُّنْيا مُقْبِلَةً عَلَيَّ - لاسْتَعْظَمْتَ هَذا الَّذي تَحْتَقِرُهُ، ولأَكْبَرْتَ هَذا الَّذي تَسْتَصْغِرُهُ.»

اغْتاظَ سُلَيْمانُ مِنْ جَوابِهِ، وعَجِبَ في الوَقْتِ ذاتِهِ مِنْ ثَباتِهِ، وأَحَبَّ أَنْ يَغيظَهُ كَما اغْتاظَ، وأَنْ يُزَعْزِعَ هَذا الثَّباتَ البادِيَ عَلى وَجْهِهِ، فَقالَ لَهُ:

«أَيْنَ تَرى الحَجّاجَ اليَوْمَ؟ هَلْ يَهْوي في النّارِ أَمِ اسْتَقَرَّ في قَعْرِها، يُصْليهِ لَهيبُها، ويَشْويهِ حَرُّها، ويُبَدِّلُهُ اللهُ جِلْدًا غَيْرَ جِلْدِهِ؟»

لَمْ تَسْتَطِعْ كَلِماتُ سُلَيْمانَ هَذِهِ أَنْ تَنْفُذَ إِلى قَلْبِ يَزيدَ، وتَهُزَّ وِجْدانَهُ كَما أَرادَ سُلَيْمانُ، وإِذا هُوَ يُجيبُ سُلَيْمانَ جَوابًا لاذِعًا، يُسْكِتُهُ ويَجْعَلُهُ يَتَمَيَّزُ مِنْ شِدَّةِ الغَيْظِ (يَتمَزَّقُ مِنهُ).

قالَ يَزِيدُ: «يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، لا تَقُلْ هَذا القَوْلَ، فَالحَجّاجُ رَجُلٌ قَمَعَ لَكُمُ العُصاةَ، وأَخْمَدَ لَكُمُ الفِتَنَ، وزَرَعَ لَكُمُ الهَيْبَةَ في نُفوسِ النّاسِ، وأَخَذَ لَكُمْ مِنْهُمُ العُهودَ والمَواثيقَ، ووَطَّأَ لَكُمُ المَنابِرَ.. ثُمَّ إِنَّهُ سَوْفَ يَأْتي يَوْمَ القِيامَةِ عَنْ يَمينِ أَبيكَ عَبْدِ المَلِكِ، وعَنْ شِمالِ أَخيكَ الوَليدِ، فَضَعْهُ في النّارِ حَيْثُ شِئْتَ!»

وَجَمَ سُلَيْمانُ لَحْظَةً قَصيرَةً، ثُمَّ اسْتَبَدَّ بِهِ الغَضَبُ، فَصاحَ بِهِ صَيْحَةً مُنْكَرَةً: «اُخْرُجْ إلى لَعْنَةِ اللهِ!»

ثُمَّ الْتَفَتَ سُلَيْمانُ إلى جُلَسائِهِ، والغَضَبُ يَكادُ يَطْفِرُ (يَتَدَفَّقُ) مِنْ عَيْنَيْهِ، وقالَ: «قَبَّحَهُ اللهُ! ما كانَ أَحْسَنَ تَرْتيبَهُ لِصاحِبِهِ!»

* * *

حِكايَةُ قَلَم

لَيْسَ هُوَ ذَلِكَ القَلَمَ الَّذي يُدَوِّنُ بِهِ النّاسُ أَفْكارَهُمْ، ويُسَجِّلونَ خَواطِرَهُمْ ومَشاعِرَهُمْ، ويَسْتَعْمِلونَهُ في حَياتِهِمُ اليَوْمِيَّةِ، وإِنَّما هُوَ اسْمٌ لِجارِيَةٍ مُوَلَّدَةٍ، أَيْ لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً خالِصَةً، بَلْ وُلِدَتْ ونَشَأَتْ في أَرْضِ العَرَبِ، وإِنْ كانَتْ مِنْ غَيْرِ العَرَبِ.

وهِيَ ذاتُ وَجْهٍ صَبوحٍ، ومَلاحَةٍ آسِرَةٍ، وعَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ، يُزَيِّنُ رَأْسَها شَعْرٌ أَسْوَدُ فاحِمٌ، مُسْتَرْسِلٌ عَلى كَتِفَيْها، يُحيطُ بِوَجْهِها، كَأَنَّهُ سَوادُ اللَّيْلِ تَأَلَّقَ فيهِ البَدْرُ، مَعَ قَوامٍ مَمْشوقٍ، كَأَنَّهُ الرُّمْحُ في اعْتِدالِهِ واسْتِوائِهِ، كَما كانوا يَقولونَ، ويُتَوِّجُ هَذا الجَمالَ الباهِرَ صَوْتٌ عَذْبٌ رَخيمٌ، كَأَنَّما يُعْلِنُ بِهِ الحُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، ويَدٌ ماهِرَةٌ صَناعٌ تُحْسِنُ الضَّرْبَ عَلى العودِ، ومُداعَبَةَ أَوْتارِهِ، فَتَنْسابُ مِنْهُ النَّغَماتُ، تَشْرَحُ الصُّدورَ، وتَأْسِرُ القُلوبَ.

كانَتْ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَعْيانِ بَغْدادَ اسْمُهُ صالِحٌ، فَنُسِبَتْ إِلَيْهِ، وقيلَ:

«قَلَمُ الصّالِحِيَّةُ».

وفي لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي الصَّيْفِ، حَيْثُ يَحْلو السَّمَرُ، ويَطيبُ السَّهَرُ، غَنَّتْ إحْدى الجَواري غِناءً رَقيقًا بَديعًا أَمامَ الخَليفَةِ العَبّاسِيِّ الواثِقِ، فَأَطْرَبَهُ اللَّحْنُ وأَشْجاهُ، وهَزَّتْهُ موسيقاهُ، فَسَأَلَ: «لِمَنْ هَذا اللَّحْنُ؟»



فَقيلَ: «لِقَلَم الصّالِحِيَّةِ.»

قالَ الواثِقُ: «ومَنْ هَذِهِ «الصّالِحِيَّةُ»؟»

قالوا: «إنَّها جارِيَةٌ مُوَلَّدَةٌ عِنْدَ «صالِحِ بْنِ عَبْدِ الوَهّابِ».»

فَبَعَثَ إلى وَزيرِهِ يَسْأَلُهُ: «مَنْ «صالِحٌ» هَذا؟»

فَأَخْبَرَهُ الوَزيرُ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَعْيانِ بَغْدادَ وأَغْنِيائِها، وأَنَّهُ أَخٌ لِلشّاعِرِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الوَهّابِ.

فَأَمَرَ الواثِقُ بِإحْضارِهِ هو وجارِيَتِهِ قَلَم.

ولَمّا قَدِما عَلَيْهِ، ودَخَلَتْ قَلَمُ عَلى الواثِقِ، راعَهُ جَمالُها الفَتّانُ، ولَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ مِنْ إظْهارِ إعْجابِهِ بِها، ثُمَّ أَمَرَها أنْ تُغَنِّيَ في حَضْرَتِهِ، فَلَمّا غَنَّتْ مِنْ لَحْنِها، أَشْجاهُ غِناؤُها، ومَسَّ وِجْدانَهُ لَحْنُها، وبَهَرَهُ أَنْ تَمْتَلِكَ الجارِيَةُ هَذا الصَّوْتَ العَذْبَ الرَّخيمَ، وهَذِهِ القُدْرَةَ الموسيقِيَّةَ البارِعَةَ، فَقالَ لِصالِحٍ: «إنّي أُريدُ شِراءَها.»

قالَ صالِحٌ: «أَما وقَدْ رَغِبَ فيها أَميرُ المُؤْمِنينَ فَإنّي أُقَدِّمُها هَدِيَّةً لَهُ؛ إذْ لا يَنْبَغي أَنْ أَمْتَلِكَ شَيْئًا لأَميرِ المُؤْمِنينَ فيهِ رَغْبَةٌ، ولَهُ بِهِ حاجَةٌ، وإنَّ مِنْ حَقِّها عَلَيَّ وقَدْ تَناهَتْ في صَنْعَتِها، وبَلَغَتِ المَبْلَغَ الَّذي أَعْجَبَ أَميرَ المُؤْمِنينَ - أَنْ أَجْعَلَها لَهُ.»

أُعْجِبَ الواثِقُ بِجَوابِ صالِحٍ، وقالَ: «لَقَدْ قَبِلْنا هَدِيَّتَكَ، وأَمَرْنا لَكَ بِجائِزَةٍ عَلى حُسْنِ جَوابِكَ.»

وأَصْدَرَ أَمْرَهُ لِوَزيرِهِ أَنْ يُعْطِيَ صالِحًا خَمْسَةَ آلافِ دينارٍ.

وسُرَّ صالِحٌ بِما آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، فَما كانَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَرُدَّ لِلْواثِقِ طَلَبًا، ولا أَنْ يَقِفَ في سَبيلِ رَغْبَةٍ يُبْديها، ولَوْ عَلى سَبيلِ التَّلْميحِ، فَما بالُهُ وقَدْ صَرَّحَ بِما يُريدُ! إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنْ سَبيلٍ غَيْرُ تَحْقيقِ رَغْبَةِ الواثِقِ، وإِجابَةِ طِلْبَتِهِ. وهُوَ وإِنْ كانَ قَدْ فَقَدَ جارِيَتَهُ، وأَضْحَتْ بَعيدَةً عَنْهُ، إِلّا أَنَّهُ قَدْ صارَتْ لَهُ يَدٌ مَشْكورَةٌ عِنْدَ أَميرِ المُؤْمِنينَ، ومَعَها خَمْسَةُ آلافِ دينارٍ!

ولَكِنَّ فَرْحَتَهُ بِالدَّنانيرِ لَمْ تَتِمَّ؛ فَقَدْ ماطَلَهُ الوَزيرُ ولَمْ يَدْفَعْها إِلَيْهِ، بَلْ إِنَّهُ قَدْ تَجاهَلَ الأَمْرَ كُلَّهُ، ولَعَلَّهُ ظَنَّ أَنَّ صالِحًا لَنْ يَسْتَطيعَ أَنْ يُفْضِيَ لأَميرِ المُؤْمِنينَ بِهَذِهِ المُماطَلَةِ فَسَكَتَ عَنْهُ، وكَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ.

ضاقَ صالِحٌ بِمُماطَلَةِ الوَزيرِ، وخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ الوَزيرَ قَدْ حَبَسَ المالَ عَنْهُ لِيَسْتَأْثِرَ بِهِ لِنَفْسِهِ، وهُوَ موقِنٌ أَنَّ الواثِقَ لَنْ يُثيرَ المَوْضوعَ مَرَّةً أُخْرى، ولا يَعْنيهِ إِنْ كانَ الوَزيرُ قَدْ أَعْطى صالِحًا مِنْحَتَهُ أَمْ حَجَبَها عَنْهُ.

وراحَ صالِح يَقْدَحُ زِنادَ فِكْرِهِ - كَما يُقالُ - لَعَلَّهُ يَهْتَدي إِلى وَسيلَةٍ يَضَعُ بِها الأَمْرَ بَيْنَ يَدَيِ الواثِقِ. ولَمْ يَقْدَحِ الزِّنادَ طَويلًا حَتّى واتَتْهُ

الوَسيلَةُ تَتَهادى في رِفْقٍ وأَناةٍ.. ما عَلَيْهِ إِلّا أَنْ يُوَجِّهَ أَحَدًا إِلى جارِيَتِهِ السّابِقَةِ قَلَم لِيُخْبِرَها بِما وَقَعَ لَهُ مِنْ مُماطَلَةِ الوَزيرِ، فَعَساها أَنْ تَجِدَ مَخْرَجًا مِنْ هَذا المَأْزِقِ الَّذي وُضِعَ فيه صاحِبُها، الَّذي أَشْرَفَ على تَرْبِيَتِها وتَدْريبِها وصَقْلِ مَوْهِبَتِها، وكانَ لَهُ الفَضْلُ في أَنْ غَدَتْ مُغَنِّيَةَ الخَليفَةِ، الأَثيرَةَ لَدَيْهِ.

عَرَفَتْ قَلَمُ الخَبَرَ، فاغْتَنَمَتْ فُرْصَةً غَنَّتْ فيها فَأَحْسَنَتِ الغِناءَ، وطَرِبَ الواثِقُ كَما لَمْ يَطْرَبْ مِنْ قَبْلُ، فَقالَ لَها مُعْجَبًا: «بارَكَ الله فيكِ وفيمَنْ رَبّاكِ.»

قالَتْ قَلَمُ مُنْتَهِزَةً هَذا الثَّناءَ: «وما نَفْعُ مَنْ رَبّاني، يا مَوْلايَ؟ إِنَّهُ لَمْ يَحْظَ مِنّي بِغَيْرِ التَّعَبِ والغُرْمِ! لَقَدْ خَرَجَ مِنّي صِفْرًا!»

دَهِشَ «الواثِقُ» مِنْ قَوْلِها، وقالَ: «أَلَمْ نَأْمُرْ لَهُ بِعَطِيَّةٍ سَنِيَّةٍ؟»

قالَتْ قَلَمُ: «بَلى، يا مَوْلايَ. ولَكِنَّ الوَزيرَ ماطَلَهُ، ولَمْ يُعْطِهِ حَتّى الآنَ شَيْئًا.»

فَلَمْ يُطِقِ الواثِقُ صَبْرًا، وهُوَ يَعْلَمُ بُخْلَ وَزيرِهِ، ودَعا خادِمًا لَهُ، وكَتَبَ لِوَزيرِهِ أَنْ يَحْمِلَ الخَمْسَةَ آلافِ دينارٍ إِلى صالِحٍ ومَعَها مِثْلُها. ولَكِنَّ الخادِمَ لَمْ يَذْهَبْ رَأْسًا إِلى الوَزيرِ، بَلْ عَرَّجَ عَلى صالِحٍ فَأَطْلَعَهُ على

كِتابِ الخَليفَةِ، واصْطَحَبَهُ إلى الوَزيرِ. فَلَمّا قَرَأَ الوَزيرُ كِتابَ الخَليفَةِ قَرَّبَ صالِحًا مِنْهُ، واعْتَذَرَ لَهُ عَنِ المُماطَلَةِ والنِّسْيانِ مِنْ كَثْرَةِ شَواغِلِ الحُكْمِ وأُمورِهِ، الَّتي لا تَدَعُ لِلإِنْسانِ وَقْتًا لِلْمُراجَعَةِ والتَّفْكيرِ. وأَظْهَرَ لَهُ صالِح أَنَّهُ طابَ نَفْسًا بِما سَمِعَ، وحينَئِذٍ قالَ لَهُ الوَزيرُ: «هَذِهِ هِيَ الخَمْسَةُ آلافِ الأُولى، اقْبِضْها وانْصَرِفْ راضِيًا مَسْرورًا، وأَمّا الأُخْرى فَبَعْدَ جُمْعَةٍ سَأَبْعَثُ بِها إِلَيْكَ.»

خَرَجَ صالِحٌ مِنْ مَجْلِسِ الوَزيرِ وهُوَ راضٍ آسِفٌ مَعًا: راضٍ لأَنَّهُ نالَ الخَمْسَةَ آلافِ دينارٍ الَّتي أَمَرَ بِها الواثِقُ، وآسِفٌ لأَنَّ خَمْسَةً أُخْرى أَفْلَتَتْ مِنْ يَدِهِ، وهُوَ في شَكٍّ قَوِيٍّ أَنَّهُ يَسْتَطيعُ الحُصولَ عَلَيْها. فَإِذا كانَ الوَزيرُ قَدْ تَناساهُ وماطَلَهُ في الأُولى هَذا المَطْلَ القَوِيَّ العَنيفَ، حَتّى احْتالَ كَيْ يُبَلِّغَ الواثِقَ ما وَقَعَ لَهُ، فَإِنَّهُ لا رَيْبَ سَيَتَناساهُ ويَتَشاغَلُ عَنْهُ في الثّانِيَةِ، ولَدَيْهِ مَخْزونٌ مِنَ الأَعْذارِ يَكْفيهِ لِتَبْريرِ فَعْلَتِهِ وكَثيرٍ سِواها.

خَرَج صالِحٌ مَهْمومًا مَحْزونًا يَجُرُّ رِجْلَيْهِ جِدًّا، ولا تَسْتَطيعُ فَرْحَتُهُ بِما قَبَضَ أَنْ تُبَدِّدَ حُزْنَهُ عَلى ما فاتَ، وأَساهُ على ما ضاعَ.

وحَدَثَ ما تَوَقَّعَهُ صالِحٌ، فَقَدْ تَناساهُ الوَزيرُ، وأَهْمَلَ شَأْنَهُ، وصالِحٌ يُذَكِّرُهُ بَيْنَ الحينِ والحينِ، ويَقْتَضيهِ، ولَكِنَّ الوَزيرَ لا يُجيبُ.

ولَمّا كَثُرَ إِلحاحُ صالِحٍ عَلى الوَزيرِ، بَعَثَ إِلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ صَكًّا بِأَنَّهُ قَدْ قَبَضَ الدَّنانيرَ، واسْتَوْفاها كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصَةٍ، وسَيَبْعَثُ بِها إِلَيْهِ بَعْدَ جُمْعَةٍ.

ولَكِنَّ صالِحًا كَرِهَ أَنْ يَكْتُبَ ذَلِكَ الصَّكَّ، ثُمَّ لا يَنالَ شَيْئًا بَعْدَ ذَلِكَ، فَما كانَ مِنْهُ إِلّا أَنِ اخْتَبَأَ عِنْدَ صاحِبٍ لَهُ، والوَزيرُ يَبْحَثُ عَنْهُ فَلا يَعْثُرُ لَهُ عَلى أَثَرٍ، ولا يَجِدُ مَنْ يَدُلُّهُ عَلى مَكانِهِ. وهُنا دَبَّ الخَوْفُ في صَدْرِ الوَزيرِ، واهْتَزَّتْ ثِقَتُهُ في نَفْسِهِ، فَلَعَلَّ صالِحًا قَدِ اخْتَبَأَ في مَكانٍ بَعيدٍ، لِيَسْتَطيعَ أَنْ يَشْكُوَ الوَزيرَ إِلى الواثِقِ، فَيُسيءَ الواثِقُ الظَّنَّ بِهِ، وما أَيْسَرَ أَنْ يَعْزِلَهُ!

خَشِيَ الوَزيرُ عَلى نَفْسِهِ مِنَ العَزْلِ، فَأَمَرَ أَعْوانَهُ بِالجِدِّ في البَحْثِ عَنْ صالِحٍ، حَتّى يَعْرِفوا مَخْبَأَهُ، دونَ أَنْ يُثيروهُ مِنْهُ. وظَلَّ أَيّامًا يَتَرَقَّبُ نَتيجَةَ البَحْثِ، وهُوَ في قَلَقٍ، لا يَعْرِفُ الاطْمِئْنانُ إِلى قَلْبِهِ سَبيلًا، ولا تَعْرِفُ السَّكينَةُ إِلى صَدْرِهِ طَريقًا، إِنَّما هُوَ في هَمٍّ دائِمٍ، يُقْعِدُهُ ويُقيمُهُ، وكادَ لا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئًا، قَدْ ضاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وضاقَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ، وتَحاشى لِقاءَ الواثِقِ، وعَرْضَ أُمورِ الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ.

ظَلَّ كَذَلِكَ أَيّامًا حَتّى وافاهُ أَعْوانُهُ بِأَنَّهُمْ قَدْ عَرَفوا مَكانَ صالِحٍ،

فَعادَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، وآبَ إِلَيْهِ هُدوؤُهُ، وثابَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ. وبَعَثَ إلى صالِحٍ بِالدَّنانيرِ، وتَسَلَّمَ مِنْهُ صَكًّا بِقَبْضِها واسْتيفائِها كامِلَةً، وعِنْدَئِذٍ اسْتَقَرَّتْ حالُهُ، وسَكَنَ خاطِرُهُ.

ولَمْ يَلْبَثْ إلّا أَيّامًا مَعْدودَةً حَتّى وافاهُ خادِمُ الواثِقِ الَّذي كانَ قَدْ حَمَلَ الكِتابَ إلى الوَزيرِ.. جاءَهُ يَقولُ لَهُ: «إِنَّ أَميرَ المُؤْمِنينَ أَرْسَلَني إِلَيْكَ لأَسْأَلَكَ: هَلْ قَبَضْتَ المالَ كُلَّهُ؟»

فَقالَ لَهُ صالِحٌ: «نَعَمْ، قَدْ قَبَضْتُهُ.»

واشْتَرى صالِحٌ بِالمالِ ضَيْعَةً كَبيرَةً، وتَعَلَّقَ بِها، وراحَ يَعْمَلُ فيها ويُنْتِجُ. وراقَتْهُ فِلاحَةُ الأَرْضِ، وهُوَ يَرى الأَرْضَ خامِدَةً هامِدَةً، يَنْزِلُ عَلَيْها الماءُ فَتَهْتَزُّ وتَرْبو، وتَصوغُ بُطونُها لِظُهورِها زُروعًا ناضِرَةً، وثِمارًا يانِعَةً، يَأْكُلُ مِنْها الإنْسانُ والطَّيْرُ والدَّوابُّ، فَيَخْشَعُ قَلْبُهُ، ويَهْتِفُ لِسانُهُ بِقَوْلِ اللهِ الكَريمِ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

لَيلَة سَمَرٍ مَعَ المَنصور

أَرادَ الخَليفَةُ العَبّاسِيُّ أَبو جَعْفَرٍ المَنْصورُ ذاتَ لَيْلَةٍ أَنْ يُرَوِّحَ عَنْ قَلْبِهِ المَكْدودِ، وأَنْ يُرَفِّهَ عَنْ خاطِرِهِ المَهْدودِ، وأَنْ يَتَشاغَلَ عَنْ حَديثِ السِّياسَةِ وشُئونِ الحُكْمِ، فاسْتَدْعى نَفَرًا مِنْ خُلَصائِهِ، الَّذينَ يَطيبُ لَهُ مَعَهُمُ الحَديثُ، يُرْسِلُهُ إِرْسالًا عَلى سَجِيَّتِهِ، لا يُقَيِّدُهُ فِكْرٌ، ولا يَخْتَصُّ بِشَأْنٍ، وإِنَّما يَتَجاذَبُ مَعَهُمْ أَطْرافَهُ، يَتَنَقَّلونَ مِنْ مَجالٍ إِلى مَجالٍ كَما تَتَنَقَّلُ الفَراشاتُ مِنْ زَهْرَةٍ إِلى زَهْرَةٍ، فَمِنَ الدُّعابَةِ إِلى النّادِرَةِ، ومِنَ الشِّعْرِ إِلى النَّثْرِ.

وكانَ مِنْ هَؤُلاءِ النَّفَرِ رَجُلٌ يَنْتَسِبُ إِلى بَني عَبْسٍ فَبادَرَهُ المَنْصورُ بِقَوْلِهِ: «يا ثُمامَةُ، أَتَحْفَظُ حَديثَ ابْنِ عَمِّكَ عُرْوَةِ الصَّعاليكِ بْنِ الوَرْدِ العَبْسِيِّ؟»

أَجابَ ثُمامَةُ: «أَيُّ حَديثِهِ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ؟ فَقَدْ كانَ كَثيرَ الحَديثِ حَسَنَهُ.»

قالَ المَنْصورُ: «حَديثُهُ مَعَ الهُذَلِيِّ الَّذي أَخَذَ فَرَسَهُ.»

قالَ ثُمامَةُ: «لا يَحْضُرُني ذَلِكَ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، فاحْكِهِ لَنا، فَإِنَّ ذَلِكَ يَمْنَحُهُ فَضْلًا، ويُعْطيهِ تَوْثيقًا، لا يَكونُ لِغَيْرِهِ مِنَ الأَخْبارِ والأَحاديثِ.»

اعْتَدَلَ المَنْصورُ في جِلْسَتِهِ، واتَّخَذَ هَيْئَةَ القاصِّ، وأَنْشَأَ يَقولُ:

خَرَجَ عُرْوَةُ ذاتَ يَوْمٍ حَتّى أَتى مَنازِلَ قَبيلَةِ خُزاعَةَ، فَلَمّا كانَ عَلى بُعْدِ ميلَيْنِ مِنْها أَذِنَتِ الشَّمْسُ بِالمَغيبِ، وأَرْخى اللَّيْلُ أَسْتارَهُ، ولَفَّ الدُّنْيا ظَلامٌ دامِسٌ، وإِذا هُوَ يَشْعُرُ بِالجُوعِ الشَّديدِ يُنْشِبُ مَخالِبَهُ في أَمْعائِهِ.

ونَظَرَ حَوْلَهُ عَلى مَدِّ بَصَرِهِ فَلَمْ يَرَ بَيْتًا ولا سَكَنًا، ولَكِنَّ أَرْنَبًا ظَهَرَتْ فَجْأَةً مِنْ بَيْنِ الرِّمالِ فَرَماها بِسَهْمٍ فَأَصابَها. وجَمَعَ الحَطَبَ وأَشْعَلَ نارًا فَشَواها وأَكَلَها، فَأَسْكَتَ مَخالِبَ الجُوعِ الَّتي كانَتْ تَعَضُّهُ عَضًّا قَوِيًّا، ثُمَّ دَفَنَ النّارَ في الأَرْضِ عَلى بُعْدِ ثَلاثَةِ أَذْرُعٍ.

وأَدْرَكَ أَنَّهُ لا مَفَرَّ مِنْ أَنْ يَقْضِيَ لَيْلَتَهُ في هَذا المَكانِ القَفْرِ، وهُوَ يَخْشى أَنْ يَطْلُبَهُ أَعْداؤُهُ، وهُمْ كَثيرونَ. وكانَ قَدْ رَأى في ضَوْءِ النّارِ الَّتي أَشْعَلَها شَجَرَةً عالِيَةً عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ، فَصَعِدَ إِلَيْها، واخْتَبَأَ بَيْنَ فُروعِها،



وظَنَّ أَنَّهُ بِذَلِكَ قَدْ أَمِنَ الطَّلَبَ.

وبَيْنَما هُوَ مُتَغَيِّبٌ في فُروعِ الشَّجَرَةِ جاءَتِ الخَيْلُ فَتَنَبَّهَتْ فيهِ كُلُّ حَواسِّهِ، وتَيَقَّظَتْ فيهِ كُلُّ فُروسِيَّتِهِ، فَقَدْ يَكونُ هَؤُلاءِ مِنْ طالِبيهِ، فَأَنْصَتَ إلى حَديثِهِمْ، فَإِذا هُمْ مِنْ خُزاعَةَ، يَتَخَوَّفونَ أَنْ يَكونَ أَحَدٌ قَدْ بَيَّتَ الإغارَةَ عَلَيْهِمْ، ويَخْشَوْنَ أَنْ يُفاجِئَهُمْ ويَأْخُذَهُمْ على غِرَّةٍ.

وبَيْنَما هُمْ يَتَناقَشونَ ويَتَجادَلونَ في الأَمْرِ، جاءَتْ جَماعَةٌ أُخْرى مِنْهُمْ، يَتَقَدَّمُها رَجُلٌ على فَرَسٍ، فَما إنْ بَلَغَ المَكانَ حَتّى رَكَّزَ رُمْحَهُ، وقالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ النّارَ في هَذا المَكانِ.»

فَنَزَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِنْ فَوْقِ صَهْوَةِ جَوادِهِ، وحَفَرَ في الأَرْضِ مِقْدارَ ذِراعٍ، فَلَمْ يَعْثُرْ عَلى شَيْءٍ، فَنَظَرَ القَوْمُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ، وراحوا يَلومونَ صاحِبَهُمْ، ويَعْذِلونَهُ، ويَعيبونَ قَوْلَهُ، ويَتَلاوَمونَ إذِ اسْتَمَعوا إلى حَديثِهِ، واسْتَجابوا لأَمْرِهِ، ويَقولونَ لَهُ:

«لَقَدْ أَرْهَقْتَنا في هَذِهِ اللَّيْلَةِ الشَّديدَةِ البَرْدِ، الحالِكَةِ السَّوادِ، وكَلَّفْتَنا مِنَ الأَمْرِ شَطَطًا (تَجاوُزًا وإفْراطًا)، وزَعَمْتَ لَنا أَنَّكَ رَأَيْتَ شَيْئًا لَمْ نَجِدْ لَهُ أَثَرًا، وكَذَبْتَ عَلَيْنا فَلَنْ نُصَدِّقَكَ بَعْدَ اليَوْمِ.»

فَقالَ الرَّجُلُ: «إنّي لَمْ أَكْذِبْ عَلَيْكُمْ، وقَدْ صَدَقْتُكُمْ في كُلِّ قَوْلي،

وقَدْ رَأَيْتُ النّارَ في هَذا المَوْضِعِ الَّذي رَكَّزْتُ فيه رُمْحي.»

قالوا: «ما رَأَيْتَ شَيْئًا، ولَكِنَّ رَغْبَتَكَ في التَّباهي، وادِّعاءَكَ الحِذْقَ والمَهارَةَ وحِدَّةَ النَّظَرِ، حَمَلَتْكَ عَلى هَذا الزَّعْمِ. وما نَعْجَبُ إلّا لأَنْفُسِنا، كَيْفَ أَطَعْنا أَمْرَكَ، واسْتَجَبْنا لِزَعْمِكَ؟»

وما زالوا بِالرَّجُلِ يَلومونَهُ ويَتَّهِمونَهُ بِالكَذِبِ والادِّعاءِ حَتّى عَدَلَ عَنْ قَوْلِهِ، ورَجَعَ عَنْ عَزْمِهِ، وعادَ مَعَهُمْ إلى مَنازِلِ القَبيلَةِ خَزْيانَ كاسِفَ البالِ (حَزينٌ مَهْمومٌ).

واتَّبَعَهُمْ عُرْوَةُ دونَ أَنْ يَشْعُروا بِهِ، حَتّى إذا بَلَغوا مَنازِلَهُمْ، كَمَنَ في ناحِيَةٍ مِنْ نَواحي بَيْتِ الرَّجُلِ، بِحَيْثُ يَرى ويَسْمَعُ ما يَحْدُثُ مِنْ هَذا الرَّجُلِ أَوْ ما يَحْدُثُ لَهُ بَعْدَ هَذِهِ الخَيْبَةِ الَّتي أَصابَهُ بِها قَوْمُهُ. وإذا امْرَأَتُهُ قَدْ جاءَها أَحَدُ الخَدَمِ بِإناءٍ مِنَ اللَّبَنِ، فَعَزَمَتْ عَلى الخادِمِ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ قَبْلَها، والخادِمُ يَأْبى ذَلِكَ، ولَكِنَّها ما زالَتْ تَحْلِفُ عَلَيْهِ حَتّى أَذْعَنَ لِما أَرادَتْ. فَلَمّا دَخَلَ عَلَيْها زَوْجُها قالَتْ لَهُ: «وَيْحَكَ! لَقَدْ عَنَّيْتَ (أَتْعَبْتَ) قَوْمَكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وكَلَّفْتَهُمْ أَمْرًا مُنْكَرًا.»

فَقالَ الرَّجُلُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ النّارَ!» وصَمَتَ صَمْتًا مُطْبِقًا، فَالكُلُّ لا يُصَدِّقونَهُ، وهَذِهِ زَوْجَتُهُ تَمْضي في إِثْرِهِمْ، وتَتَّهِمُهُ بِالكَذِبِ والادِّعاءِ.



ثُمَّ دَعا بِإِناءِ اللَّبَنِ لِيَشْرَبَ، عَلَّ قَطَراتِ اللَّبَنِ تُطْفِئُ النّارَ المُتَأَجِّجَةَ في قَلْبِهِ، وتُهَدِّئُ الضّيقَ العَنيفَ الَّذي يَغْلي في صَدْرِهِ. ولَكِنَّهُ ما إِنْ قَرَّبَ الإِناءَ مِنْ شَفَتَيْهِ حَتّى قالَ لِزَوْجَتِهِ: «في هَذا الإِناءِ ريحُ رَجُلٍ سَبَقَني إِلَيْهِ.»

قالَتْ زَوْجَتُهُ: «وأَيُّ ريحٍ غَيْرُ ريحِكَ، يا رَجُلُ؟ هَذِهِ أُخْرى.»

ثُمَّ صاحَتْ بِقَوْمِها فَجاءوها، فَأَخْبَرَتْهُمْ خَبَرَهُ، وقالَتْ: «إِنَّهُ يَتَّهِمُني في عِرْضي، ويَظُنُّ بِيَ الظُّنونَ.»

ما زالوا بِهِ يَلومونَهُ، ويَعْذِلونَهُ، حتّى رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ، وعَدَلَ عَنْ زَعْمِهِ؛ فَقالَ عُرْوَةُ في نَفْسِهِ: «وهَذِهِ ثانِيَةٌ.»

ثُمَّ أَوى الرَّجُلُ إِلى فِراشِهِ، فَلَعَلَّ النَّوْمَ يَزورُهُ فَيُهَدِّئَ ثائِرَةَ غَضَبِهِ المَكْتومِ. واقْتَنَصَ عُرْوَةُ هَذِهِ الفُرْصَةَ فَوَثَبَ إِلى فَرَسِ الرَّجُلِ يُريدُ أَنْ يَنْطَلِقَ بِهِ، ولَكِنَّ الفَرَسَ تَحَرَّكَ وضَرَبَ بِرِجْلَيْهِ الأَمامِيَّتَيْنِ، فَعادَ عُرْوَةُ إِلى مَكْمَنِهِ، وَهَبَّ الرَّجُلُ مِنْ نَوْمِهِ، وأَخَذَ يُرَبِّتُ عَلى عُنُقِ الفَرَسِ، وهُوَ يَقولُ: «ما لَكَ؟ ما كُنْتَ لِتَكْذِبَني.»

فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ تَلومُهُ لَوْمًا عَنيفًا، وتَتَّهِمُهُ بِالخَرَفِ والسَّفَهِ، وتَزْعُمُ أَنَّ رَغْبَتَهُ في التَّحَذْلُقِ (ادِّعاءِ الحِذْقِ والمَهارَةِ) قَدِ اسْتَبَدَّتْ بِهِ، فَأَصْبَحَ جَحيمًا لا يُطاقُ!

وَرَجَعَ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِهِ، وعَدَلَ عَنْ رَأْيِهِ؛ فَقالَ عُرْوَةُ: «وهَذِهِ ثالِثَةٌ.»

وأَوى الرَّجُلُ إلى فِراشِهِ، ووَثَبَ عُرْوَةُ إلى الفَرَسِ يُريدُ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ، ولَكِنَّ الفَرَسَ صَنَعَ مِثْلَ ما صَنَعَ مِنْ قَبْلُ، وهَبَّ الرَّجُلُ مِنْ نَوْمِهِ كَما هَبَّ مِنْ قَبْلُ، وقالَ لِفَرَسِهِ مِثْلَ ما قالَ، وأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ عَلَيْهِ تُعَنِّفُ بِهِ، وتَشْتَدُّ في اللَّوْمِ والعَذْلِ.

صَنَعَ عُرْوَةُ هَذا الأَمْرَ ثَلاثَ مَرّاتٍ، وكَذَلِكَ الرَّجُلُ وزَوْجَتُهُ. ويَبْدو أَنَّهُ قَدْ ضَجِرَ مِنْ كَثْرَةِ القِيامِ، وضاقَ صَدْرُهُ مِنْ كَثْرَةِ اللَّوْمِ، فَقالَ لِفَرَسِهِ بِصَوْتٍ مَسْموعٍ: «لَنْ أَقومَ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ.»

وتَهَيَّأَ الأَمْرُ لِعُرْوَةَ، فَدَنا مِنَ الفَرَسِ، وامْتَطى صَهْوَتَهُ، وانْطَلَقَ بِهِ راكِضًا. لَمْ يَعُدْ هُناكَ شَكٌّ في أَنَّ أَحَدًا قَدِ انْطَلَقَ بِالفَرَسِ، فَنَهَضَ الرَّجُلُ مُسْرِعًا، ورَكِبَ وَراءَهُ، وكانَ يَقولُ لِفَرَسِهِ الَّتي يَمْتَطيها: «إِنَّكِ أُنْثى مِنْ نَسْلِهِ فَهَيّا الْحَقي بِهِ.»

ولَمّا انْقَطَعَ عَنِ البُيوتِ، الْتَفَتَ إِلَيْهِ عُرْوَةُ، وقالَ لَهُ: «مَهْلًا أَيُّها الرَّجُلُ! إِنَّكَ لَوْ عَرَفْتَني ما أَجْهَدْتَ نَفْسَكَ بِاتِّباعي. أَنا عُرْوَةُ بْنُ الوَرْدِ، وقَدْ رَأَيْتُ مِنْكَ اليَوْمَ عَجَبًا، فَإِنْ فَسَّرْتَ لي ما حَدَثَ رَدَدْتُ إِلَيْكَ فَرَسَكَ.»

قالَ الرَّجُلُ: «وماذا رَأَيْتَ؟»

قالَ عُرْوَةُ: «جِئْتَ مَعَ قَومِكَ إلى مَوضِعِ نارٍ كُنْتُ قَدْ أَوْقَدْتُها، ولَمّا قَضَيْتُ مِنْها حاجَتي دَفَنْتُها، فَما زالَ بِكَ قَوْمُكَ يُكَذِّبونَكَ ويَلومونَكَ حَتّى ثَنَوْكَ عَنْ قَوْلِكَ فَانْثَنَيْتَ، وقَدْ صَدَقْتَ وكَذَبوا. ثُمَّ اتَّبَعْتُكَ حَتّى بَلَغْتَ مَنْزِلَكَ، وجاءَتْكَ امْرَأَتُكَ بِإناءِ اللَّبَنِ، فَشَمَمْتَ فيهِ ريحَ رَجُلٍ قَدْ سَبَقَكَ إلَيْهِ، وهُوَ خادِمُكَ، وقَدْ رَأَيْتُهُ حينَ أَلَحَّتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُكَ أَنْ يَشْرَبَ مِنَ الإناءِ. فَما زالَتْ بِكَ تَثْنيكَ عَنْ قَوْلِكَ حَتّى انْثَنَيْتَ، ثُمَّ خَرَجْتُ إلى فَرَسِكَ أُريدُ الذَّهابَ بِهِ فاضْطَرَبَ وتَحَرَّكَ، فَقُمْتَ إليْهِ، فَبادَرَتْ زَوْجَتُكَ بِتَعْنيفِكَ وتَأْنيبِكَ، فَرَجَعْتَ عَنْ قَوْلِكَ، وانْثَنَيْتَ عَنْ عَزْمِكَ. ثُمَّ نَهَضْتَ إلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، ثُمَّ أَضْرَبْتَ عَنِ النُّهوضِ، فانْطَلَقْتُ بِهِ كَما تَرى. لَقَدْ رَأَيْتُكَ مِنْ أَكْمَلِ النّاسِ في هَذِهِ الخِصالِ، ولَكِنَّكَ سَرْعانَ ما تَرْضَخُ لِلَّوْمِ والتَّأْنيبِ، فَتُثْنَى عَنْ عَزْمِكَ، وتَعْدِلُ عَنْ قَوْلِكَ، وهَذا التَّرَدُّدُ يُفْسِدُ أَمْرَكَ، ويَحُطُّ مِنْ قَدْرِكَ، ويُضَيِّعُ بَيْنَ النّاسِ هَيْبَتَكَ.»

ضَحِكَ الرَّجُلُ ضِحْكَةً عالِيَةً، تُنْبِئُ عَنِ الحَسْرَةِ والأَلَمِ أَكْثَرَ مِمّا تُنْبِئُ عَنِ الفَرْحَةِ والسُّرورِ، ثُمَّ قالَ: «ما رَأَيْتَ مِنْ فِراسَتي وسَدادِ رَأْيي هُوَ مِنْ أَعْمامي مِنْ هُذَيْلٍ، أَمّا ما رَأَيْتَهُ مِنْ خَوَرِ نَفْسي وضَعْفي، فَهُوَ مِنْ قِبَلِ

أَخْوالي وهُمْ بَطْنٌ مِنْ خُزاعَةَ، والمَرْأَةُ الَّتي رَأَيْتَها عِنْدي مِنْهُمْ، وأَنا أَعيشُ بَيْنَهُمْ، وذَلِكَ يَثْنيني عَنْ أَشْياءَ كَثيرَةٍ.

«لَقَدْ عَزَمْتُ عَلى أَنْ أُخَلِّيَ سَبيلَ المَرْأَةِ، وأَلْحَقَ بِقَوْمي مُنْذُ اليَوْمِ، ولَوْلا ما رَأَيْتَ، يا عُرْوَةُ، مِنْ ضَعْفي وجُبْني، ما قَدَرَ عَلى مُناوَأَةِ (مُعاداةِ) قَوْمي أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ.»

قالَ عُرْوَةُ: «الآنَ عَرَفْتُ. خُذْ فَرَسَكَ راشِدًا.»

قالَ الرَّجُلُ: «بَلْ خُذْهُ أَنْتَ، يا عُرْوَةُ، مُبارَكًا لَكَ فيهِ، فَعِنْدي مِنْ نَسْلِهِ جَماعَةٌ كَثيرَةٌ.»

عَقَّبَ ثُمامَةُ عَلى حَديثِ المَنْصورِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ لِعُرْوَةَ - يا أَميرَ المُؤْمِنينَ - عِنْدَنا أَحاديثَ كَثيرَةً، ولَكِنْ ما سَمِعْنا بِأَظْرَفَ مِنْ هَذا الحَديثِ.»

❊ ❊ ❊

النحويُّ البَخيل

كانَ أَبو الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ رَجُلًا عالِمًا، مُتَبَحِّرًا في عِلْمِهِ، فَقيهًا مُتَعَمِّقًا في فِقْهِهِ، دَخَلَتْ عَلَيْهِ ابْنَتُهُ في يَوْمٍ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وحَمِيَتْ شَمْسُهُ، فَقالَتْ: «يا أَبَتِ، ما أَشَدُّ الحَرِّ.»

فَظَنَّها أَبو الأَسْوَدِ تَسْأَلُ عَنْ أَيِّ الأَيّامِ يَكونُ الحَرُّ فيها شَديدًا، فَقالَ لَها: «شَهْرُ ناجِر.» يَعْني شَهْرَ صَفَرٍ فَقَدْ كانَتِ العَرَبُ تُسَمّيهِ بِهَذا الاسْمِ. فَعَجِبَتِ الفَتاةُ مِنْ أَبيها، وظَنَّتْ أَنَّ أَباها لَمْ يَفْهَمْ قَصْدَها، فَقالَتْ: «يا أَبَتِ، ما سَأَلْتُكَ عَنْ أَيِّ الشُّهورِ يَشْتَدُّ فيها الحَرُّ، ولَكِنّي أَخْبَرْتُكَ أَنَّ اليَوْمَ شَديدُ الحَرِّ.»

فَجَزِعَ أَبو الأَسْوَدِ لِقَوْلِها، وأَدْرَكَ مَدى اللَّحْنِ الَّذي وَقَعَتْ فيهِ ابْنَتُهُ، فَأَسْرَعَ يَحُثُّ الخُطا إلى عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ وكانَ لَهُ مُحِبًّا، وقالَ لَهُ:

«يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، ذَهَبَتْ لُغَةُ العَرَبِ أَدْراجَ الرِّياحِ، وضاعَتْ مَعالِمُها، لَمّا خالَطَتِ العَرَبُ غَيْرَها مِنْ أَهْلِ البِلادِ غَيْرِ العَرَبِيَّةِ،

وتوشِكُ إنْ تَطاوَلَ عَلَيْها الزَّمَنُ أنْ تَضْمَحِلَّ آثارُها، ولا يَهْتَمَّ أحَدٌ بِشَأْنِها.»

فَقالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَلَيْهِ: «وما ذاكَ؟»

فَقَصَّ عَلَيْهِ أَبو الأَسْوَدِ خَبَرَ ابْنَتِهِ، وكَيْفَ قادَها اللَّحْنُ إلى عَدَمِ القُدْرَةِ عَلى الإفْهامِ، كَما قادَهُ الخَطَأُ ذاتُهُ إلى عَدَمِ الفَهْمِ، وبِذَلِكَ أُهْدِرَتْ وَظيفَةُ اللُّغَةِ.

فَأَمَرَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَرِيَ صُحُفًا بِدِرْهَمٍ، وأَنْ يَأْتِيَهُ، فَلَمّا أَتاهُ أَمْلى عَلَيْهِ: «كَلامُ العَرَبِ كُلُّهُ لا يَخْرُجُ عَنِ اسْمٍ وفِعْلٍ وحَرْفٍ.» وهَذا أَوَّلُ أَبْوابِ النَّحْوِ، ثُمَّ رَسَمَ أَبو الأَسْوَدِ بَعْدَ ذَلِكَ أُصولَ النَّحْوِ كُلَّها، فَجاءَ العُلَماءُ مِنْ بَعْدِهِ فَنَقَلوا هَذِهِ الأُصولَ وفَرَّعوا عَلَيْها، كَيْ يَحْفَظوا لِلُّغَةِ حَيَوِيَّتَها وتَجَدُّدَها.

وكانَ أبو الأَسْوَدِ، مَعَ عِلْمِهِ الغَزيرِ وفِقْهِهِ الواسِعِ، بَخيلًا شَديدَ الحِرْصِ عَلى المالِ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ في سَعَةٍ مِنَ الرِّزْقِ. ولَهُ في ذَلِكَ نَوادِرُ لَطيفَةٌ، ومواقِفُ عَجيبَةٌ.

كانَ بَيْنَ قَوْمِهِ وآخَرينَ مُنازَعَةٌ ومُخاصَمَةٌ، نَفَثَ فيها الشَّيْطانُ سُمومَهُ، وأَغْرى الفَريقَيْنِ بِالعِراكِ والنِّزالِ، فَسَقَطَ مِنْ خُصومِ قَوْمِهِ قَتيلٌ، فكانَ لِزامًا عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْفَعوا دِيَتَهُ (تَعْويضًا)، فَاجْتَمَعوا إلى أَبي

الأَسْوَدِ يَسْأَلونَهُ المُعاوَنَةَ في أَداءِ الدِّيَةِ، وأَلَحَّ عَلَيْهِ غُلامٌ مِنْهُمْ، وَهَبَهُ اللهُ بَيانًا قَوِيًّا، وعارِضَةً (فَصاحةً) بارِعَةً، فَقالَ لَهُ:

«يا أبا الأَسْودِ، أَنْتَ شَيْخُ عَشيرَتِنا، وسَيِّدُ قَوْمِنا، والمُطاعُ فينا، ولَيْسَ هُناكَ ما يَحولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ مُعاوَنَةِ قَوْمِكَ في هَذا الغُرْمِ الَّذي نَزَلَ بِساحَتِهِمْ، فَمالُكَ - والحَمْدُ لله - مَوْفورٌ، وأَنْتَ صاحِبُ كَرَمٍ وجُودٍ، وجِئْناكَ آمِلينَ في عَوْنِكَ، مُسْتَبْشِرينَ خَيْرًا بِرِفْدِكَ (عَطائِكَ).»

ضاقَ أَبو الأَسْوَدِ بِقَوْلِ الغُلامِ، ولَمّا فَرَغَ صَبْرُهُ مِنْهُ قَطَعَ عَلَيْهِ مَقالَتَهُ، وقالَ لَهُ: «يا بْنَ أَخي، لَقَدْ أَكْثَرْتَ القَوْلَ في غَيْرِ طائِلٍ، فَاسْمَعْ مِنّي: إنَّ الرَّجُلَ - ورَبِّ الكَعْبَةِ - لا يُعْطي مالَهُ إلّا لِواحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الخِلالِ (الخِصالِ): أَنْ يَكونَ مُنْتَظِرًا لِمُكافَأَةٍ سَخِيَّةٍ وجائِزَةٍ سَنِيَّةٍ مِمَّنْ يُعْطيهِ، أَوْ يَكونَ مُتَوَجِّسًا عَلى نَفْسِهِ خيفَةً، ومُتَوَقِّعًا شَرًّا يَقي نَفْسَهُ بِمالِهِ، ويَحْفَظُ عِرْضَهُ بِعَطائِهِ، أَوْ يَكونَ رَجُلًا تَقِيًّا وَرِعًا يَخافُ الله، ويَلْتَزِمُ تَعاليمَهُ وشَريعَتَهُ فَيَرْجو ما عِنْدَ اللهِ في الآخِرَةِ، أَوْ يَكونَ رَجُلًا غِرًّا أَحْمَقَ يُخْدَعُ عَنْ مالِهِ. «وواللهِ ما أَنْتُمْ - يا بُنَيَّ - أَحَدَ هَذِهِ الفِئاتِ الأَرْبَع، ولا جِئْتُمْ في شَيْءٍ مِنْ هَذا، ولا أَنا - يا بُنَيَّ - بِالرَّجُلِ العاجِزِ الأَحْمَقِ الَّذي يَنْخَدِعُ لِمِثْلِ هَؤُلاءِ. والَّذي أَفَدْتُهُ لَكَ في عَقْلِكَ ورَأْيِكَ خَيْرٌ مِنْ مالِ أَبي الأَسْوَدِ كُلِّهِ. قُوموا إذا شِئْتُمْ.»

فَنَهَضوا مُسْرِعينَ إلى البابِ، وهُمْ يَلومونَ أَنْفُسَهُمْ إذْ ظَنُّوا فيهِ شَيْئًا مِنَ الأَرْيَحِيَّةِ، وبَعْضًا مِنَ الكَرَمِ.

وكانَ أَبو الأَسْوَدِ جالِسًا ذاتَ يَوْمٍ في فِناءِ بَيْتِهِ، بَيْنَ يَدَيْهِ رُطَبٌ يَرْفَعُ مِنْها الواحِدَةَ بَعْدَ الأُخْرى إلى فَمِهِ، ويَلوكُها في بُطْءٍ وتَلَذُّذٍ، فَمَرَّ بِهِ أَعْرابِيٌّ وقالَ: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ.»

فَقالَ لَهُ أَبو الأَسْوَدِ: «كَلِمَةٌ مَقولَةٌ.»

قالَ الأَعْرابِيُّ: «أَأَدْخُلُ؟»

فَأَجابَهُ أَبو الأَسْوَدِ: «وَراءَكَ أَوْسَعُ لَكَ.»

قالَ الأَعْرابِيُّ: «إِنَّ الحَرَّ قَدْ أَشْعَلَ الأَرْضَ نارًا، فَأَحْرَقَتْ رِجْلَيَّ.»

قالَ أَبو الأَسْوَدِ: «اذْهَبْ إلى الجَبَلِ تَجِدْ في سَفْحِهِ ظِلًّا فَتَبَرَّدْ بِهِ.»

قالَ الأَعْرابِيُّ: «أَعِنْدَكَ شَيْءٌ تُطْعِمُني إِيّاهُ؟»

فَأَلْقى إِلَيْهِ أَبو الأَسْوَدِ ثَلاثَ رُطَباتٍ، فَوَقَعَتْ إِحْداهُنَّ في التُّرابِ، فَأَخَذَها الأَعْرابِيُّ وراحَ يَمْسَحُها بِثَوْبِهِ، فَقالَ لَهُ أَبو الأَسْوَدِ:

«دَعْها، فَإِنَّ التُّرابَ الَّذي تَمْسَحُها مِنْهُ أَنْظَفُ مِنْ ثَوْبِكَ الَّذي تَمْسَحُها بِهِ.»

قالَ الأَعْرابِيُّ: «واللهِ، ما رَأَيْتُ قَطُّ أَلأَمَ مِنْكَ!»



فَقالَ أَبو الأَسْوَدِ: «بَلْ قَدْ رَأَيْتَ، ولَكِنَّكَ قَدْ أُنْسيتَ.»

* * *

وكانَ لأَبي الأَسْوَدِ مِصْطَبَةٌ عَلى بابِ دارِهِ مُرْتَفِعَةٌ عَنِ الأَرْضِ إلى قَدْرِ صَدْرِ الرَّجُلِ، يَجْلِسُ عَلَيْها، وكانَ يُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ خِوانٌ (مائِدَةٌ) عَلَيْها طَعامُهُ، فَإذا مَرَّ بِهِ أَحَدٌ دَعاهُ إلى الطَّعامِ، فَلا يَجِدُ مَوْضِعًا يَجْلِسُ فيهِ، لِضيقِ المِصْطَبَةِ، ولأَنَّ الخِوانَ وصاحِبَهُ قَدْ شَغَلا مِساحَتَها كُلَّها، فَلَمْ يَبْقَ فيها مَوْضِعٌ لأَحَدٍ، فَيَخْرُجُ هُوَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ إلى الطَّعامِ مِنْ دائِرَةِ البُخَلاءِ، ويَحْرِصُ عَلى طَعامِهِ فَلا يَنالُ مِنْهُ أَحَدٌ شَيْئًا.

وذاتَ يَوْمٍ مَرَّ بِهِ فَتًى، فيهِ قُوَّةُ الشَّبابِ ومَرَحُهُ، وفيهِ نَشاطُهُ وعُنْفوانُهُ، فَأَراد أَبو الأَسْوَدِ أَنْ يَنالَ مِنْ هَذِهِ الفُتُوَّةِ البادِيَةِ عَلى الشّابِّ، وأَنْ يُرِيَهُ أَنَّ حِكْمَةَ الشُّيوخِ تَغْلِبُ نَشاطَ الشَّبابِ، وتَفوقُ مَرَحَهُ وانْطِلاقَهُ، فَدَعا الفَتى إلى طَعامِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الفَتى مَرِحًا نَشيطًا، وفي نَفْسِهِ أنْ يُلَقِّنَ هَذا الشَّيْخَ دَرْسًا لَنْ يَنْساهُ.

نَظَرَ الفَتى إلى الخِوانِ فَوْقَ المِصْطَبَةِ، وقَدْ شَغَلَها أَبو الأَسْوَدِ، فَلَمْ يَتْرُكْ فيها مَوْضِعًا، فَما كانَ مِنْهُ إلّا أنْ تَناوَلَ الخِوانَ بِما عَلَيْهِ مِنَ الطَّعامِ بِيَدَيْهِ القَوِيَّتَيْنِ، ووَضَعَهُ عَلى الأَرْضِ، وجَلَسَ يَلْتَهِمُ الطَّعامَ الْتِهامًا،

وقالَ: «يا أَبا الأَسْوَدِ، إنْ شِئْتَ أَنْ تَأْكُلَ فانْزِلْ!»

وظَلَّ يَلْتَهِمُ الطَّعامَ، وأَبو الأَسْوَدِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ في حَسْرَةٍ وأَسًى، ويَلومُ نَفْسَهُ لأَنَّهُ أَرادَ أَنْ يَمْكُرَ بِالفَتى، فَإِذا الفَتى أَشَدُّ مِنْهُ مَكْرًا، وأَبْرَعُ مِنْهُ حيلَةً.

فَقالَ لَهُ: «ما اسْمُكَ، يا فَتًى؟»

قالَ: «لُقْمانُ الحَكيمُ.»

قالَ أَبو الأَسْوَدِ: «لَقَدْ أصابَ أَهْلُكَ حَقيقَةَ اسْمِكَ.»

* * *

ذو الإصبَعِ وبَناتُهُ

قَدِمَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوانَ الكُوفَةَ، وجَلَسَ يسْتَعْرِضُ أَحْياءَ العَرَبِ. وكانَ واسِعَ الثَّقافَةِ، عالِمًا بِالأَنْسابِ، كَثيرَ الرِّوايَةِ لِلشِّعْرِ، حَسَنَ التَّذَوُّقِ لَهُ، فَتَقَدَّمَ مِنْهُ رَجُلٌ مِنْ جَديلَةَ يُقالُ لَهُ مَعْبَدٌ، وهُوَ قَصيرُ القامَةِ، دَميمُ الخِلْقَةِ، زَرِيٌّ (حَقيرُ) الشَّكْلِ، فَسَبَقَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ حَسَنُ المَنْظَرِ، جَميلُ الطَّلْعَةِ، فَسَأَلَهُ عَبْدُ المَلِكِ: «مِمَّنِ الرَّجُلُ؟»

فَلَمْ يُحِرْ جَوابًا (لَمْ يَرُدَّ بِجَوابٍ)، واسْتَغْلَقَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ، فَقالَ مَعْبَدٌ مِنْ خَلْفِهِ: «نَحْنُ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، مِنْ جَديلَةَ.»

فَأَقْبَلَ عَبْدُ المَلِكِ عَلى الرَّجُلِ الماثِلِ أَمامَهُ، وتَرَكَ مَعْبَدًا لَمْ يُعِرْهُ اهْتِمامًا، وقالَ: «مِنْ أَيِّكُمْ ذو الإِصْبَعِ؟»

أَجابَ الرَّجُلُ: «لا أَدْري.»

فَقالَ مَعْبَدٌ مِنْ خَلْفِهِ: «مِنْ عَدْوانَ.»

فَأَقْبَلَ عَبْدُ المَلِكِ عَلى الرَّجُلِ وتَرَكَ مَعْبَدًا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ قالَ لِلرَّجُلِ: «لِمَ سُمِّيَ ذا الإِصْبَعِ؟»

قالَ الرَّجُلُ: «لا أَدْري.»

فَقالَ مَعْبَدٌ مِنْ خَلْفِهِ: «نَهَشَتْهُ حَيَّةٌ في إِصْبَعِهِ فَيَبِسَتْ، فَعُرِفَ بِذَلِكَ.»

فَأَقْبَلَ عَبْدُ المَلِكِ عَلى الرَّجُلِ، وتَرَكَ مَعْبَدًا لَمْ يُعِرْهُ الْتِفاتًا، ثُمَّ قالَ لِلرَّجُلِ: «وبِمَ كانَ يُسَمّى قَبْلَ ذَلِكَ؟»

ولَكِنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَفْتَحِ اللهُ عَلَيْهِ بِجَوابٍ، فَقالَ مَعْبَدٌ مِنْ خَلْفِهِ: «كانَ يُسَمّى قَبْلَ ذَلِكَ حَرْثانَ.»

فَأَقْبَلَ عَبْدُ المَلِكِ عَلى الرَّجُلِ، وتَرَكَ مَعْبَدًا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، ولَمْ يُلْقِ إِلَيْهِ بالَهُ، ثُمَّ سَأَلَ الرَّجُلَ: «مِنْ أَيِّ عَدْوانَ كانَ؟»

فَسَكَتَ الرَّجُلُ، فَقالَ مَعْبَدٌ مِنْ خَلْفِهِ: «كانَ مِنْ بَني ناجٍ الَّذينَ يَعيبُهُمُ الشّاعِرُ بِأَنَّهُمْ لا يَسْتَجيبونَ لِمَعْروفٍ، ولا يَأْنَسونَ لِخَيْرٍ، وإِنَّما هُمْ مُعانِدونَ بِحَقٍّ وبِغَيْرِ حَقٍّ.»

ولَكِنَّ عَبْدَ المَلِكِ لَمْ يُعِرْ مَعْبَدًا انْتِباهًا، وأَقْبَلَ عَلى الرَّجُلِ وقالَ لَهُ: «أَنْشِدْني قَوْلَ ذي الإِصْبَعِ: عَذيرَ الحَيِّ مِنْ عَدْوانَ.»

فَفَتَحَ اللهُ عَلى الرَّجُلِ بِقَوْلِهِ: «لَسْتُ أَرْويها.»

فَقالَ مَعْبَدٌ: «يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، إنْ شِئْتَ أَنْشَدْتُكَ إيّاها.»

وهُنا قالَ عَبْدُ المَلِكِ لِمَعْبَدٍ: «اُدْنُ مِنّي؛ فَإنّي أَراكَ عالِمًا بِقَوْمِكَ.»

فَدَنا مَعْبَدٌ مِنْ أَميرِ المُؤْمِنينَ، وأَنْشَدَ قَصيدَةَ ذي الإصْبَعِ:

عَذيرَ الحَيِّ مِنْ عَدْوا

نَ كانوا حَيَّةَ الأَرْضِ

بَغى بَعْضُهُمْ بَعْضًا

فَلَمْ يُبْقوا عَلى بَعْضِ

فَقَدْ صاروا أَحاديثَ

برَفْعِ القَوْلِ والخَفْضِ

واسْتَمَرَّ يُنْشِدُ حَتّى أَتى عَلى القَصيدَةِ كُلِّها، الَّتي تُبْرِزُ أَنَّ بَغْيَ العَدْوانِيِّينَ عَلى بَعْضٍ، ونَهْشَهُمْ أَعْراضَ بَعْضٍ، كانَ السَّبَبَ في انْدِثارِ قُوَّتِهِمْ، وضَياعِ هَيْبَتِهِمْ، وانْكِسارِ شَوْكَتِهِمْ، حَتّى غَدَوْا مَثَلًا يُضْرَبُ في الذِّلَّةِ والهَوانِ لِحُمْقِهِمْ وجَهْلِهِمْ.

وما إنْ فَرَغَ مِنْ إنْشادِهِ حَتّى أَقْبَلَ عَبْدُ المَلِكِ عَلى الرَّجُلِ وتَرَكَ مَعْبَدًا وقالَ لِلرَّجُلِ: «كَمْ عَطاؤُكَ؟»

قالَ: «أَلْفانِ.»

فَالْتَفَتَ إلى مَعْبَدٍ وقالَ لَهُ: «وأَنْتَ كَمْ عَطاؤُكَ؟»

قالَ مَعْبَدٌ: «خَمْسُمائَةٌ.»

قالَ عَبْدُ المَلِكِ لِكاتِبِهِ: «اجْعَلِ الأَلْفَيْنِ لِهَذا والخَمْسَمائَةَ لِهَذا.»

ثُمَّ أَقْبَلَ عَبْدُ المَلِكِ عَلى مَعْبَدٍ وقالَ لَهُ: «أَتَذْكُرُ شَأْنَ ذي الإِصْبَعِ وبَناتِهِ الأَرْبَعِ؟»

قالَ مَعْبَدٌ: «أَجَلْ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ.»

قالَ عَبْدُ المَلِكِ: «هاتِهِ، فَإِنَّ فيهِ تَسْلِيَةً وعِبْرَةً.»

راحَ مَعْبَدٌ يَحكي:

كانَ لذي الإِصْبَعِ أَرْبَعُ بَناتٍ، ذواتُ جَمالٍ ودَلالٍ، وكانَ الشَّبابُ يَسْعَوْنَ إلى خِطْبَتِهِنَّ، وكانَ «ذو الإِصْبَعِ» يَعْرِضُ عَلَيْهِنَّ ذَلِكَ، ويَسْأَلُ كُلَّ واحِدَةٍ جاءَها خاطِبٌ رَأْيَها، فَكُنَّ يَسْتَحينَ مِنَ التَّحَدُّثِ مَعَهُ، فَلا يُجيبُ خاطِبًا إلى رَغْبَتِهِ، وكانَتْ أُمُّهُنَّ قَلِقَةً عَلَيْهِنَّ، حَريصَةً عَلى تَزْويجِهِنَّ، فَكانَتْ تُلِحُّ عَلَيْهِ في ذَلِكَ، ولَكِنَّهُ كانَ عَنْها مُعْرِضًا، وبِصُحْبَةِ بَناتِهِ راضِيًا مَسْرورًا.

وذاتَ لَيْلَةٍ ساقَتْهُ قَدَماهُ إلى مَكانٍ تَجْتَمِعُ فيهِ بَناتُهُ، ويَتَحَدَّثْنَ عَلى

سَجِيَّتِهِنَّ دونَ أَنَ يَخْشَيْنَ رِقابَةً على حَديثِهِنَّ. فَجَلَسَ غَيْرَ بَعيدٍ يَسْتَمِعُ إلى ما يَدورُ بَيْنَهُنَّ مِنْ حَديثٍ، دونَ أَنْ يَشْعُرْنَ بِهِ.

قُلْنَ: «تَعالَيْنَ نَتَمَنّى، ولِتَصْدُقْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنّا في قَوْلِها.»

فَقالَتِ الكُبْرى: «إنَّني أَتَمَنّى زَوْجًا يَفيضُ شَبابًا وفُتُوَّةً، لَهُ مالٌ وَفيرٌ، ودِرايَةٌ طَيِّبَةٌ بِمُعامَلَةِ النِّساءِ، فَلا يَضْطَرُّني إلى العَمَلِ والخِدْمَةِ، ويُشْبِعُ حاجَتي إلى التَّرَفِ والمُتْعَةِ.»

فَقالَتْ لَها أَخَواتُها: «أَنْتِ تُحِبّينَ رَجُلًا لَيْسَ مِنْ قَوْمِكِ.»

وقالَتِ الثّانِيَةُ: «أَتَمَنّى زَوْجًا شُجاعًا قَوِيًّا، مُرْهَفَ الحِسِّ، رَقيقَ المَشاعِرِ، يَلْتَصِقُ بِأَكْبادِ النِّساءِ، عَلى أَنْ يَكونَ مِنْ أَهْلي ومَحْتِدي (أَصْلي).»

فَقالَتْ لَها أَخَواتُها: «أَنْتِ تُحِبّينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِكِ.»

وقالَتِ الثّالِثَةُ: «أَتَمَنّى زَوْجًا كَريمًا جَوادًا، خَبَرَ الحَياةَ، وعَرَكَ أَحْداثَها، يُكْرِمُ ضَيْفَهُ، ويَرْحَمُ أَهْلَهُ، ويُعينُ عَلى نَوائِبِ الدَّهْرِ، وَسَطًا في عُمْرِهِ، لا هُوَ بِالحَدَثِ الغِرِّ، ولا بِالشَّيْخِ الفاني.»

قالَتْ لَها أَخَواتُها: «أَنْتِ تُحِبّينَ رَجُلًا شَريفًا.»

وقُلْنَ لِلصُّغْرى: «تَمَنَّيْ!»

فَقالَتْ: «ما أُريدُ شَيْئًا.»

قُلْنَ لَها: «واللهِ لا تَبْرَحينَ مَكانَكِ، حَتّى نَعْلَمَ ما يَنْطَوي عَلَيْهِ صَدْرُكِ، وما يَدورُ في خَلَدِكِ!»

فَقالَتْ: «زَوْجٌ مِنْ عودٍ خَيْرٌ مِنْ قُعودٍ.»

فَهِيَ قَدْ أَفْصَحَتْ عَنْ ذاتِ نَفْسِها، وأَنَّها تَتَمَنّى زَوْجًا أَيَّ زَوْجٍ، فَهُوَ خَيْرٌ لَها مِنْ هَذا القُعودِ في دارِ أَبيها. فَهِيَ تَخْشى أَنْ يَطولَ مُكْثُها حَتّى يُصيبَها العُنوسُ.

فَلَمّا سَمِعَ ذو الإِصْبَعِ هَذا الحَديثَ الَّذي دارَ بَيْنَهُنَّ، نَدِمَ عَلى رَفْضِهِ تَزْويجَهُنَّ، وأَسْرَعَ فَزَوَّجَهُنَّ لِمَنْ جاءَ خاطِبًا. ومَكَثْنَ في بُيوتِهِنَّ الجَديدَةِ ما شاءَ اللهُ لَهُنَّ المُكوثَ، ثُمَّ اجْتَمَعْنَ إِلَيْهِ، فَقالَ لِلْكُبْرى: «أَيْ بُنَيَّةُ، ما مالُكُمْ؟»

قالَتْ: «الإِبِلُ.»

قالَ: «فَكَيْفَ تَجِدونَها؟»

قالَتْ: «نَأْكُلُ لُحومَها، ونَشْرَبُ أَلْبانَها، وتَحْمِلُنا وضَعيفَنا إِلى المَكانِ الَّذي نَبْتَغيهِ، والَّذي ما كُنّا لِنَبْلُغَهُ مِنْ غَيْرِها.»

قالَ ذو الإِصْبَعِ: «وكَيْفَ تَجِدينَ زَوْجَكِ؟»

قالَتْ: «خَيْرُ زَوْجٍ، كَريمٌ يُكْرِمُ حَليلَتَهُ، ويَحْرِصُ عَلى وِدِّها،

ويُعْطي غَيْرَهُ مِنْ مالِهِ دونَ مَنٍّ عَلَيْهِ أَوْ رِياءٍ لِلنّاسِ.»

قالَ: «مالٌ عَميمٌ، وخَيْرٌ وَفيرٌ، وزَوْجٌ كَريمٌ نَبيلٌ.»

ثُمَّ أَقْبَلَ على ابْنَتِهِ الثّانِيَةِ، وسَأَلَها: «أَيْ بُنَيَّةُ، ما مالُكُمْ؟»

قالَتْ: «البَقَرُ.»

قالَ: «فكَيْفَ تَجِدونَها؟»

قالَتْ: «خَيْرُ مالٍ، تَأْلَفُ الفِناءَ فَلا تَجْمَحُ ولا تَشْرُدُ، وتَمْلأُ الإِناءَ مِنْ لَبَنِها، وتَجْعَلُ الدَّسَمَ في السِّقاءِ الَّذي نَشْرَبُهُ مِنْها.»

قالَ ذو الإِصْبَعِ: «وكَيْفَ تَجِدينَ زَوْجَكِ؟»

قالَتْ: «زَوْجٌ كَريمٌ، يُكْرِمُ زَوْجَتَهُ، ويَحْنُو عَلَيْها، ويَنْسى فَضْلَهُ فَلا يَمُنُّ بِهِ ولا يَسْتَكْثِرُ.»

قالَ ذو الإِصْبَعِ: «حَظيتِ، يا بُنَيَّتي، ورَضيتِ.»

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلى الثّالِثَةِ، وقالَ لَها: «وأَنْتِ يا بُنَيَّةُ، ما مالُكُمْ؟»

أَجابَتْ: «المِعْزى.»

قالَ: «فكَيْفَ تَجِدونَها؟»

قالَتْ: «لا بَأْسَ بِها، نُولِدُها فُطُمًا، فَنَنْتَفِعُ بِلَبَنِها وأَوْلادِها، ونَسْلَخُها جُلودًا فَنَدْبُغُها ونَأْكُلُ لُحومَها.»

قالَ: «وكَيْفَ تَجِدينَ زَوْجَكِ؟»

قالَتْ: «لا بَأْسَ بِهِ، لَيْسَ بِالبَخيلِ الشَّحيحِ الَّذي يَسْتَبِدُّ بِمالِهِ ورَأْيِهِ، ولَيْسَ بِالسَّخِيِّ المُبَذِّرِ الَّذي يُتْلِفُ مالَهُ فيما لا فائِدَةَ فيهِ.»

قالَ ذو الإِصْبَعِ: «فيهِ فائِدَةٌ وغَناءٌ لأَهْلِهِ.»

ثُمَّ أَقْبَلَ على الصُّغْرى، وسَأَلَها كَما سَأَلَ أَخَواتِها، فَقالَتْ: «مالُنا الضَّأْنُ.»

قالَ: «وكَيْفَ تَجِدونَها؟»

قالَتْ: «شَرُّ مالٍ، بُطونُهُنَّ واسِعَةٌ لا تَشْبَعُ، وحُلوقُهُنَّ يابِسَةٌ لا تَرْتَوي، وهُنَّ صُمٌّ لا يَسْمَعْنَ، وبِبَلادَتِهِنَّ يُضْرَبُ المَثَلُ، فَهُنَّ يَتْبَعْنَ مَنْ تَسْقُطُ مِنْهُنَّ في الماءِ أَوِ الوَحْلِ، ولِذَلِكَ قالَتِ العَرَبُ: «أَبْلَدُ ما يُرْعى الضَّأْنُ!»»

قالَ ذو الإِصْبَعِ: «وكَيْفَ تَجِدينَ زَوْجَكِ؟»

قالَتْ: «شَرُّ زَوْجٍ! يُكْرِمُ نَفْسَهُ، ويُهينُ عَروسَهُ.»

قالَ ذو الإِصْبَعِ: «أَشْبَهَ امْرُؤٌ بَعْضَ بَزِّهِ.» أَيْ أَشْبَهَ مَتاعَهُ ومالَهُ. وصارَ قَوْلُهُ هَذا مَثَلًا.

هَذِهِ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، حِكايَتُهُ مع بَناتِهِ الأَرْبَعِ.

فَعَجِبَ عَبْدُ المَلِكِ مِنْ دُرْبَةِ لِسانِ مَعْبَدٍ، وفَصاحَتِهِ، وتَنْظيمِ فِكْرِهِ، وحُسْنِ تَنْسيقِهِ وتَرْتيبِهِ، فَأَمَرَ لَهُ بِجائِزَةٍ سَنِيَّةٍ(قَيِّمةٍ)، وعَطِيَّةٍ هَنِيَّةٍ - فانْصَرَفَ بِها راضِيًا، وبِقُرْبِهِ مِنْ أَميرِ المُؤْمِنينَ مُعْتَزًّا.

* * *

مِن فِعْلاتِ الأَجواد

عُرِفَ الخَليفَةُ أَبو جَعْفَرِ المَنْصورُ بِأَنَّهُ يَتَعَقَّبُ بَني أُمَيَّةَ وأَعْوانَهُمْ تَعَقُّبًا شَديدًا، ويَبْطِشُ بِهِمْ بَطْشًا عَنيفًا، وقَدْ لا يَتَرَيَّثُ حَتّى تَثْبُتَ التُّهْمَةُ، وإِنَّما يَأْخُذُ بِالشُّبْهَةِ ويُعاقِبُ بِالظِّنَّةِ.

وذاتَ يَوْمٍ سَعى إِلَيْهِ أَحَدُ الغِلْمانِ، وأَخْبَرَهُ أَنَّ سَيِّدَهُ كانَ يَحْظى بِتَقْديرِ أُمَراءِ البَيْتِ الأُمَوِيِّ، وكانَتْ لَهُ عِنْدَهُمْ مَنْزِلَةٌ سامِيَةٌ، ومَكانَةٌ عالِيَةٌ، ولِذَلِكَ أَوْدَعوا عِنْدَهُ وَدائِعَ غالِيَةً، واسْتَأْمَنوهُ عَلى أَمْوالٍ وَفيرَةٍ، لِيَجِدوها وَقْتَ الحاجَةِ، ويَسْتَرِدّوها حينَما تَهْدَأُ الأَحْوالُ، ويَأْمَنونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ.

اِسْتَشاطَ المَنْصورُ غَيْظًا، وغَلَتْ مَراجِلُ الغَضَبِ في نَفْسِهِ، وتَوَعَّدَ الرَّجُلَ بِالهَلاكِ، وأَمَرَ بِإِحْضارِهِ عَلى عَجَلٍ. وما إِنْ وَصَلَ حَتّى أَدْخَلوهُ عَلَيْهِ.

قالَ لَهُ المَنْصورُ في غَضَبٍ: «ما هَذا الَّذي رُفِعَ إِلَيَّ عَنْكَ؟»

قالَ الرَّجُلُ: «وما ذاكَ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ؟»

قالَ المَنْصورُ في حِدَّةٍ وعُنْفٍ: «بَلَغَني أَنَّ عِنْدَكَ وَدائِعَ وأَمْوالًا لِبَني أُمَيَّةَ.. أَسْرِعْ فَأَخْرِجْها إِلَيْنا.»

قالَ الرَّجُلُ في أَناةٍ وهُدوءٍ: «يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، هَلْ أَنْتَ وارِثُ بَني أُمَيَّةَ؟»

وكَأَنَّما فَعَلَ هُدوءُ الرَّجُلِ فِعْلَهُ في نَفْسِ المَنْصورِ، فَهَدَأَتْ سَوْرَةُ غَضَبِهِ، ولانَتْ حِدَّتُهُ، فَأَجابَ الرَّجُلَ بِقَوْلِهِ: «لا، لَسْتُ وارِثًا لِبَني أُمَيَّةَ.»

قالَ الرَّجُلُ: «يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، هَلْ أَوْصى لَكَ بَنو أُمَيَّةَ بِوَدائِعِهِمْ وأَمْوالِهِمْ؟»

أَجابَ المَنْصورُ: «لا، لَمْ يُوصوا إِلَيَّ بِشَيْءٍ.»

قالَ الرَّجُلُ: «إِذًا فَما سُؤالُكَ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، عَمّا في يَدي مِنْ وَدائِعَ وأَمْوالٍ لِبَني أُمَيَّةَ؟»

أَجابَ المَنْصورُ: «إِنَّ بَني أُمَيَّةَ ظَلَموا المُسْلِمينَ، وأَخَذوا مِنْهُمْ أَمْوالًا بِغَيْرِ حَقٍّ، وأَنا وَكيلُ المُسْلِمينَ، وأُريدُ أَنْ أَرُدَّ أَمْوالَهُمْ إِلى بَيْتِ مالِهِمْ.»

قالَ الرَّجُلُ: «إذَن تَحْتاجَ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، إلى البَيِّنَةِ العادِلَةِ عَلى أَنَّ ما في يَدي مِنْ وَدائِعَ وأَمْوالٍ لِبَني أُمَيَّةَ، هِيَ مِنَ الأَمْوالِ الَّتي أَخَذوها مِنَ المُسْلِمينَ بِغَيْرِ حَقٍّ. أَلَمْ يَكُنْ لِبَني أُمَيَّةَ أَمْوالٌ غَيْرُ أَمْوالِ المُسْلِمينَ؟»

أَجابَ المَنْصورُ: «بَلى، كانَتْ لَهُمْ أَمْوالٌ. صَدَقْتَ! ما يَجِبُ عَلَيْكَ شَيْءٌ.»

هَدَأَتْ نَفْسُ الرَّجُلِ، واطْمَأَنَّ خاطِرُهُ، ونَظَرَ إلى أميرِ المُؤْمِنينَ نَظْرَةً تَفيضُ بِالإجْلالِ والإكْبارِ، وتَقْطُرُ بِالشُّكْرِ والعِرْفانِ. وخُيِّلَ لِلْمَنْصورِ أَنَّ كَلِماتٍ تَتَراقَصُ عَلى شَفَتَيِ الرَّجُلِ، تَهُمُّ أَنْ تَنْطَلِقَ فَيَحْبِسَها، فقالَ لَهُ مُشَجِّعًا: «أَلَكَ حاجَةٌ؟»

أَجابَ الرَّجُلُ: «نَعَمْ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ. تَجْمَعُ بَيْني وبَيْنَ مَنْ سَعى بي إلَيْكَ.. فَوَاللهِ الَّذي لا إلَهَ إلا هُوَ ما في يَدي مالٌ لِبَني أُمَيَّةَ ولا وَديعَةٌ، ولَكِنّي لَمّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لا يُنَجّيني مِنْ عِقابِكَ إلّا هَذا القَوْلُ.»

فَأَمَرَ المَنْصورُ بِإحْضارِ الغُلامِ الَّذي وَشى بِالرَّجُلِ، فَلَمّا حَضَرَ وراَهُ الرَّجُلُ قالَ: «يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، هَذا غُلامي سَرَقَ مِنّي ثَلاثَةَ

آلافِ دينارٍ ثُمَّ هَرَبَ، ولَمّا خَشِيَ أنْ أَبْحَثَ عَنْهُ، وأَجِدَّ في طَلَبِهِ - صَنَعَ ما صَنَعَ.»

فَشَدَّدَ المَنْصورُ النَّكيرَ عَلى الغُلامِ وخَوَّفَهُ، فإذا هُوَ يُقِرُّ بِكُلِّ ما ذَكَرَهُ الرَّجُلُ، فَقالَ المَنْصورُ لِلرَّجُلِ: «نَسْأَلُكَ الصَّفْحَ عَنْهُ.»

أجابَ الرَّجُلُ: «حُبًّا وكَرامَةً. لَقَدْ صَفَحْتُ عَنْهُ، وأَعْتَقْتُهُ ومَنَحْتُهُ الآلافَ الثَّلاثَةَ الَّتي سَرَقَها، وزِدْتُهُ عَلَيْها ثَلاثَةً أُخْرى؛ إكْرامًا لَكَ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ.»

فكانَ المَنْصورُ يَتَعَجَّبُ مِنْهُ كُلَّما ذَكَرَهُ، ويَقولُ: «ما رأَيْتُ مِثْلَ هَذا الشَّيْخِ قَطُّ! هَذا مِنْ فِعْلاتِ الأَجْوادِ.»

❊ ❊ ❊

فِي هَذِهِ الدُّنيا
مَن هُوَ أَجوَدُ مِنك

مَعْنُ بْنُ زائِدَةَ مِنْ أَجْوادِ العَرَبِ، ضُرِبَ بِهِ المَثَلُ في الجودِ والكَرَمِ كَما ضُرِبَ بِحاتِمِ الطّائِيِّ، وعُرِفَ بِالحِكْمَةِ وحُسْنِ التَّدْبيرِ، وفِقْهِ السِّياسَةِ، ودِقَّةِ النَّظَرِ.

خَدَمَ الدَّوْلَةَ الأُمَوِيَّةَ ما اسْتَطاعَ إلى ذَلِكَ سَبيلًا، وبَذَلَ في سَبيلِها ما شاءَ اللهُ لَهُ أَنْ يَبْذُلَ مِنْ جَهْدٍ وطاقَةٍ. فَلَمّا انْقَضَتْ أَيّامُها، وبَلِيَتْ ثِيابُها، وتَوَلّى بَنو العَبّاسِ الأَمْرَ، وآلَ إِلَيْهِمُ الحُكْمُ - أَخَذوا يَبْحَثونَ عَمَّنْ كانوا يُناصِرونَ بَني أُمَيَّةَ ويُؤازِرونَهُمْ، وجَدُّوا في طَلَبِهِمْ، وخاصَّةً الخَليفَةَ أَبا جَعْفَرٍ المَنْصورَ، الَّذي أَخَذَ يَتَعَقَّبُ أَنْصارَ بَني أُمَيَّةَ وأَعْوانَهُمْ ويَفْتِكُ بِهِمْ فَتْكًا ذَريعًا.

ومِنْ بَيْنِ هَؤُلاءِ الَّذينَ كانَ يَبْحَثُ عَنْهُمْ ويَجِدُّ في البَحْثِ مَعْنُ بْنُ زائِدَةَ.

وجَدّ مَعْنٌ بِدَوْرِهِ في الاخْتِباءِ والتَّخَفّي، وكانَ اخْتِباؤُهُ وتَخَفّيهِ في بَغْدادَ، مَقَرِّ خِلافَةِ المَنْصورِ، ومَوْطِنِ جُنْدِهِ وحَرَسِهِ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطيعوا أَنْ يَعْثُروا لَهُ عَلى أَثَرٍ، أَوْ يَعْرِفوا لَهُ مَثْوًى، حَتّى ضاقَتْ نَفْسُهُ بِما دَأَبَ (اِعْتادَ) عَلَيْهِ مِنَ التَّخَفّي والاخْتِباءِ، ونَفَرَ قَلْبُهُ مِنْ هَذا الضَّيْمِ الَّذي يُرْغَمُ عَلَيْهِ إِرْغامًا، ومِنْ هَذا الذُّلِّ الَّذي يُقْسَرُ عَلَيْهِ قَسْرًا، فَآثَرَ أَنْ يَفِرَّ مِنْ بَغْدادَ، وأَنْ يَخْرُجَ إِلى أَرْضِ اللهِ الواسِعَةِ، فَفيها الغَناءُ. فَعَرَّضَ نَفْسَهُ لِلشَّمْسِ حَتّى لَوَّحَتْ وَجْهَهُ، ومالَ لَوْنُهُ إِلى السُّمْرَةِ، وخَفَّفَ عارِضَيْهِ (شَعْرَ جانِبَيْ وَجْهِهِ)، وأَزالَ بَعْضَ شَعْرِ رَأْسِهِ؛ إِمْعانًا في تَضْليلِ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنَ الجُنودِ، وإِسْرافًا في التَّنَكُّرِ؛ كَيْ لا يَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وهُوَ رَجُلٌ بَيْنَ النّاسِ مَشْهورٌ مَعْروفٌ.

واسْتَطاعَ بِذَلِكَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بابِ حَرْبٍ - أَحَدِ أَبْوابِ بَغْدادَ - وظَنَّ أَنَّهُ قَدْ نَجا بِنَفْسِهِ، وأَنَّهُ أَصْبَحَ بَعيدًا عَنْ قَبْضَةِ المَنْصورِ وجُنودِهِ، ولَكِنَّهُ كانَ في ذَلِكَ الظَّنِّ واهِمًا!

ما إِنْ بارَحَ مَعْنٌ سورَ بَغْدادَ، وأَخَذَ يَضْرِبُ في الأَرْضِ الفَضاءِ - حَتّى أَطْلَقَ لِفِكْرِهِ العِنانَ؛ في أَيِّ بادِيَةٍ يَسْتَقِرُّ؟ ومَعَ أَيِّ قَوْمٍ يَعيشُ؟ وهَلْ يَعيشُ بَيْنَهُمْ بِاسْمِهِ وصِفَتِهِ أَمْ يُغَيِّرُ اسْمَهُ وصِفَتَهُ؟

وبَيْنَما هُوَ مُسْتَغْرِقٌ في أَفْكارِهِ، مُسْتَرْسِلٌ في خَواطِرِهِ، إِذْ لَمَحَ عَبْدًا أَسْوَدَ يَتْبَعُهُ، وهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ. وما إِنْ بَلَغَهُ حَتّى قَبَضَ على خِطامِ جَمَلِهِ فَأَناخَهُ، وأَمْسَكَ بِيَدِ مَعْنٍ بِقُوَّةٍ وشِدَّةٍ، فَاضْطَرَبَ مَعْنٌ ولَكِنَّهُ تَجَلَّدَ وتَماسَكَ، وقالَ لِلرَّجُلِ: «ما بِكَ؟»

أَجابَهُ: «أَنْتَ طِلْبَةُ أَميرِ المُؤْمِنينَ (مَطْلوبٌ عِنْدَهُ).»

قالَ مَعْنٌ: «ومَنْ أَكونُ، يا هَذا، حَتّى يَطْلُبَني أَميرُ المُؤْمِنينَ؟»

قالَ الرَّجُلُ: «أَنْتَ مَعْنُ بْنُ زائِدَةَ.»

قالَ مَعْنٌ، وقَدْ أُخِذَ أَخْذَةً شَديدَةً، وَلَكِنَّهُ تَظاهَرَ بِالتَّجَلُّدِ: «يا رَجُلُ، اِتَّقِ اللهَ! أَيْنَ أنا مِنْ مَعْنٍ؟»

قالَ الرَّجُلُ: «دَعْ هَذا التَّمْويهَ، يا مَعْنُ، فَإِنّي أَعْرَفُ بِكَ مِنْ نَفْسِكَ.»

فَلَمّا رَأى مَعْنٌ فيهِ مَظْهَرَ الجِدِّ الَّذي لا يُهْزَمُ، آثَرَ أَنْ يُلايِنَهُ ويُساوِمَهُ، فَقالَ لَهُ: «يا هَذا، إِنَّ مَعي جَوْهَرًا قَدْ حَمَلْتُهُ يُساوي أَضْعافَ ما رَصَدَهُ المَنْصورُ لِمَنْ يَجيئُهُ بي، فَخُذْهُ، ولا تَكُنْ سَبَبًا في سَفْكِ دَمي!»

فَقالَ الرَّجُلُ: «هاتِهِ!»

فَأَخْرَجَهُ مَعْنٌ لَهُ، فَنَظَرَ فيهِ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ: «صَدَقْتَ، يا مَعْنُ في

قيمَتِهِ، ولَسْتُ قابِلًا لَهُ حَتّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنْ صَدَقْتَني الجَوابَ أَطْلَقْتُ سَراحَكَ.»

قالَ مَعْنٌ: «سَلْ، يا أَخا العَرَبِ، ما تُريدُ.»

قالَ الرَّجُلُ: «إِنَّ النّاسَ قَدْ وَصَفوكَ بِالجودِ، وضَرَبوا بِكَ المَثَلَ، فَأَخْبِرْني: هَلْ وَهَبْتَ يَوْمًا مالَكَ كُلَّهُ؟»

قالَ مَعْنٌ: «كَلّا.»

قالَ الرَّجُلُ: «هَلْ مَنَحْتَ يَوْمًا نِصْفَهُ؟»

أجابَ مَعْنٌ: «ولا نِصْفَهُ.»

قالَ الرَّجُلُ: «هَلْ جُدْتَ يَوْمًا بِثُلُثِهِ؟»

أجابَ مَعْنٌ: «ولا ثُلُثِهِ.»

وما زالَ الرَّجُلُ يَتَنَزَّلُ بِهِ حَتّى بَلَغَ العُشْرَ، فَاسْتَحْيا مَعْنٌ أَنْ يَقولَ لا، وقالَ: «أَظُنُّ أَنّي فَعَلْتُ ذَلِكَ يَوْمًا.»

قالَ الرَّجُلُ: «لَيْسَ ذَلِكَ بِعَظيمٍ. إِنَّ راتِبي الَّذي أَتَقاضاهُ مِنَ الخَليفَةِ كُلَّ شَهْرٍ عِشْرونَ دِرْهَمًا، وهَذا الجَوْهَرُ الَّذي تَعْرِضُهُ عَلَيَّ تَبْلُغُ قيمَتُهُ أُلوفَ الدَّنانيرِ. وقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ، ووَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ، ولِجودِكَ المَأْثورِ بَيْنَ النّاسِ، ولِتَعْلَمَ أَنَّ في هَذِهِ الدُّنْيا مَنْ هُوَ أَجْوَدُ مِنْكَ، وأَكْثَرُ كَرَمًا،



فلا تُعْجِبْكَ نَفْسُكَ، ولْتُحَقِّرْ بَعْدَ هَذا كُلَّ جودٍ فَعَلْتَهُ، وكُلَّ كَرَمٍ أَتَيْتَهُ، ولا تَتَوَقَّفْ عَنْ مَكْرُمَةٍ.»

ثُمَّ رَمى الرَّجُلُ الجَوْهَرَ في حِجْرِ مَعْنٍ، وتَرَكَ خِطامَ الجَمَلِ، ووَلَّى مُنْصَرِفًا، فَقالَ لَهُ مَعْنٌ: «يا هَذا، واللهِ لَقَدْ فَضَحْتَني! ولَسَفْكُ دَمي أَهْوَنُ عَلَيَّ مِمَّا فَعَلْتَهُ بي، خُذْ ما دَفَعْتُهُ لَكَ؛ فَإِنّي غَنِيٌّ عَنْهُ.»

فَضَحِكَ الرَّجُلُ طَويلًا، ثُمَّ قالَ: «يا مَعْنُ، أَرَدْتَ أَنْ تَجْعَلَني كاذِبًا في قَوْلي هَذا. واللهِ لا آخُذُهُ، ولا آخُذُ لِمَعْروفٍ ثَمَنًا أَبَدًا.»

ومَضى لِسَبيلِهِ!

يَقولُ مَعْنٌ: «فَواللهِ لَقَدْ طَلَبْتُهُ بَعْدَ أَنْ أَمِنْتُ، ووَلّانِيَ المَنْصورُ اليَمَنَ، وبَذَلْتُ (أَعْطَيْتُ مالًا) لِمَنْ يَدُلُّني عَلَيْهِ، أَوْ يَجيئُني بِهِ ما شاءَ، فَما عَرَفْتُ لَهُ خَبَرًا، ولا وَقَعْتُ لَهُ عَلى أَثَرٍ، وكَأَنَّ الأَرْضَ قَدِ ابْتَلَعَتْهُ!»

* * *

الينابيع تتفجّر من التُّراث العربيّ الأصيل، ومِنَ السِّيرِ الشَّعبيَّةِ الغَنيَّةِ، ومِنَ الحِكاياتِ الشَّعبيةِ العَربيَّةِ؛ لتُصوِّرَ نماذجَ مُضيئةً مِن تُراثِنا، وتعرِض قِيمًا مُشرقةً في حياتِنا: تَمزج بين الجِدِّ، والفُكاهةِ في لُغةٍ هادِئةٍ راقيةٍ: لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسفُّ فتهبط بذوقِه ومستواه، وإنما تمتّع وجدانَه وقلبه، وتُثري فِكرَه وعقلَه.

الينابيع

مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص.ب: ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

ISBN 977-16-1220-4

